طـوفـــان

طـوفـــان

رواية لليافعين

ميثاء الخياط

Qindeel | قـنـديل

Tofan

(Novel)

Maitha Al Khayat

طوفان

رواية لليافعين

ميثاء الخياط

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

شخصيات هذه الرواية وأحداثها من نسج الخيال. وإن تشابهت الأسماء فذلك ليس إلا مصادفة

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02-01-9878658 تاريخ 2018/3/29

ISBN: 978 - 9948 - 24 - 108 - 9

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2018

رسم الغلاف: حصة الراطوق

الطبعة الأولى: نيسان / أبريل 2018 م – 1439 هـ

أنجزت هذه القصة بإشراف الدكتورة

وفاء ثابت المزغني

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

(فئة الكتابة لليافعين)

المقدمة

بتوجيهات سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، الداعية إلى إطلاق وطرح مبادرات نوعية تهدف إلى تدريب وصقل مواهب الأجيال الجديدة والشابة في مجال الكتابة، وبعد النجاح اللافت الذي حققته مبادرة «برنامج دبي الدولي للكتابة» ضمن فئة الكتابة للطفل، يسر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، أن تستمر في إبراز الطاقات الكتابية الكامنة، والتي ينتظرها، إن شاء الله، مستقبل واعد في خوض غمار الكتابة، لتكون من الأقلام التي يفتخر بها على المستوى المحلي والعربي، وذلك ضمن فئة الكتابة لليافعين.

وقد حرصت مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم عند إطلاق هذه الفئة من الكتابة، على اختيار المواهب المشاركة بشكل دقيق، تلك المواهب القادرة على تقديم الجديد والقيِّم والممتع في هذا الفن. واستمراراً لما بدأته المؤسسة في مشروعها المعرفي المتميز، فإنها تابعت وُرَشَ العمل الخاصة بالبرنامج خطوة بخطوة، من خلال

الجهود التي بذلتها الكاتبة والمدربة الدكتورة وفاء ثابت المزغني، لتنقل خبرتها وتجربتها الثريَّة إلى هذه المواهب؛ لنحصدَ في النهاية نتائجَ باهرةً.

نقدِّمُ اليومَ مجموعةً من الروايات الموجهة لفئة اليافعين، التي نطمح إلى أن تشجِّعَ الموهوبين كافةً على إطلاق العنان لمواهبهم من جهة، وأن تكون لها رسائل هادفة تؤتي ثمارها اليانعة لقرائها من جهة أخرى.

وختاماً، نتوجه بالشكر الجزيل لكل من أسهم ويسهم في نجاح هذا المشروع المعرفي ليخرج بشكلٍ مختلفٍ شكلاً ومضموناً، ويضاف إلى إنجازات مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة؛ لتكون لبنة في بناء معرفي شامخ يفيد المجتمع ويثري عقول بناة المستقبل.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

شكر وتقدير

أنا لست بخيالة ولا هاوية ركوب الخيل. ولم أحضر أي سباق للخيول أو أي مهرجانات متعلقة بالفروسية، لكن منذ أول مرة ركبت فيها المُهْرة حين كنت في الروضة وقعت في حب الحصان. كبرت وأنا أحب قراءة قصص «Black Beauty» ولم تفوتني المسلسلات والأفلام التي كانت تعرض جمال وشهامة وبسالة ولياقة هذا المخلوق العجيب. فاعذروني إن بدا مني أي تقصير في بعض تفاصيل القصة فلولا العديد من المساعدات من قبل فارسات وهاويات خيل لما استطعت كتابة هذه الرواية.

والجدير بالذكر كوني كاتبة متخصصة في الكتابة للأطفال، لقد راودتني فكرة الكتابة عن قصة تتعلق بالخيل سنة 2015 حين كنت أدردش مع صديقتي الكاتبتين سحر نجا محفوظ ونورة خوري خلال مهرجان طيران الإمارات للآداب والذي يقام سنوياً في شهر مارس في دبي، ونالت الفكرة استحسانهما خاصة حين أخبرتهما

بالعنوان الأول الذي فكرت فيه وهو «خيل خليفة». ظلت الفكرة تدور في ذهني فترة، وحين سمعت بأن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة قد أطلقت «برنامج دبي الدولي للكتابة» فئة الكتابة للأطفال، قررت أن أشارك بقصتي هذه على أساس أنها ستكون قصة مصورة للصغار.

تعلمت الكثير من البرنامج، فكل الشكر للقائمين عليه أخص من بينهم المدربة د.وفاء مزغني التي كانت صبورة جداً وداعمة لي طوال مدة البرنامج بعد انتهائه، لم تقصر معي أبداً بإشرافها خاصة أنني تأخرت عليها في تسليم المسوّدات.

خلال عرضي للقصة، شجعتني المدربة وجميع المتدربين أن تكون قصة خيل خليفة رواية لما كان فيها من تشويق، وتسليط الضوء على هواية أساسية نعتز بها في دولة الإمارات. كما اقترح بعضهم أن تكون سلسلة من الروايات وليست رواية واحدة؛ لما فيها من أحداث وإمكانيات لتشجيع اليافعين على القراءة والاعتزاز بالهوية الوطنية وحب هواية الفروسية.

لقد رافقني أيضاً في مسيرتي وساعدتني كثيراً في دعمي لكتابة هذه الرواية.

شكراً بدرية الشامسي، شكراً يا أكثر الكاتبات الإماراتيات إبداعاً في أدب الطفل، فقد كنتِ رفيقتي في تحرير النص وتنقيحه جمالياً مثلما ترين الأمور حولك.

ويا من ساندتني في تحرير لغتي العربية ريماتي، «ريما زهير الكردي» كاتبة ومدربة وعاشقة قصص الأطفال وكل ما تعلق باللغة العربية. كلما جلست معك مع أنك بعيدة مئات الأميال عني، أتعلم العربية أكثر وأعشقها بعمق.

أعرف أعرف أن كتابة الرواية صعبة جداً وتحتاج إلى وقت خاصة إذا كان فيها حقائق عليك التأكد منها كما في روايتنا هذه، معلومات كثيرة عن الخيول العربية وكيفية الاعتناء بها هنا في دولتنا. وفي هذه الأثناء أشكر الفارسة علياء الشويهي على المعلومات التي أفادتني بها من خلال مشاركتها لي حبها وشغفها عن الخيول التي كانت تعتني بها منذ ولادتها وقصصها التي لامست أوتار قلبي.

أتذكر أنني وصلت مرحلة في القصة حيث توقفت ستة أشهر متتالية لأنني احترت كيف أصف تعلق الفحل بوالدته الفرس. أخذتني العزيزة علياء في رحلة ميدانية إلى الإسطبلات لأشاهد كيف يلعب الحصان الصغير ويلاحق أمه. كانت رحلة ملهمة جداً لي وكانت حافزاً رائعاً لاستكمال الرواية.

أشكر من كل قلبي كل من دعمني أو علّمني أو أرشدني أو دعا لي غيباً أو حاضراً لإتمام هذا المشروع الأدبي المتواضع، وسعيدة جداً أن يكون ضمن مبادرات مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة.

«حياة جديدة»

«إن كنت ستعيش معنا، فعليك أن تتعلّم كيف تتعامل مع الخيول»

كانت هذه أول جملة سمعها خليفة من عمه ذياب بعد أن ركب سيارة «البيك آب» القديمة، ورغم صوت هدير السيارة المزعج، فإنه شعر بصوت عمه مليئاً بالازدراء.

لا يريد خليفة أن يعرف شيئاً عن الخيول. تكفيه رائحتها المنبعثة من الفَرْشِ المهترئ لسيارة عمه، تزكم أنفه الآن، هذا العم الذي لم يقابله في حياته قط، وهاهو اليوم مضطر إلى الانتقال والعيش معه بعد أن توفي والداه في حادث سيارة مريع.

ابتعدت السيارة عن بيت جدته حيث مكث هناك مؤقتاً بعد وفاة والديه. أراد أن يبقى هناك معها، لكنها كانت مقعدة وكثيرة

النسيان. تعتني بها عمته المتزوجة والتي لديها ثمانية أطفال. كان الحلّ الأنسب للجميع أن يعيش مع عمه الوحيد ذياب.

لا يعرف خليفة لماذا لم يقابل عمه أبدًا من قبل، وكان كلما سأل والده عنه، قابله بصمت متبعاً ذلك الصمت بكلمة «الله يسامحه».

اهتزاز عربة عمه أيقظه من شرود ذهنه. نظر إلى الخلف فشاهد البنايات تبتعد من خلال النافذة الخلفية المغبرَّة، بدت كأنها أذرع ترفع أيديها إلى السماء تودعه. التفت إلى الأمام ونظر إلى الأفق العاري من النباتات والحياة وحتى من أي جماد. إلى أين يأخذه عمه؟

أحس بِحَرٍّ شديد، فَجِهاز التكييف لم يكن باردًا كما اعتاد أن يجده في سيارة والده الفاخرة من طراز «لكزس». اختلس النظر إلى يساره، عمه يقود السيارة بوجه متجهم، عاقد الحاجبين. لم تكن لديه لحية مثل أبيه، بل هو زغب من الشعر الأبيض المتناثر على وجنتيه المتجعدتين. لم يعرف خليفة إن كان عمه أصلع الرأس أو ذا شعر، كان يغطي رأسه بالحمدانية[1]. أما كندورته فصفراء اللون باهتة، وليست ناصعة البياض مثل تلك التي يرتديها أبوه. أبوه... الذي كان يضحك ويبتسم ويغني في السيارة حين يركب معه. التفت إلى يمينه ليشاهد

(1) الحمدانية: غترة يرتديها الرجال بطريقة خاصة؛ كالعمامة في دولة الإمارات العربية المتحدة.

الرمـال التـي تكسـو المنطقـة بأكملهـا، وتتحـول مـن بيضـاء إلى برتقاليـة يكسـوها الاحمـرار. حتـى رملهـم مختلـف ـ فكّـر خليفـة في نفسـه ـ شـاهد كيـف أنّ التـلال الرمليـة منحـدرة تـارة ومرتفعـة تـارة أخـرى، متقلبـة وغـير مسـتقرة.

لم يقبـل خليفـة حقيقـةَ أنـه لـن يـرى أمّـه وأبـاه أبـدًا، وأن أذنـه لـن تسـمع صوتيهـما. بالـكاد اسـتطاع بلـع ريقـه آنـذاك وقـد غـصّ بفيضـان دمـع يهـدد بالانهـار، كـره الدمـوع التـي انهالـت كالشـلال

خلال الأسبوع الماضي. حاول في كل مرة منعها من الانسياب كلما نظر إليه أحد أفراد عائلته أو ضيوف العزاء، ولم يستطع ردعها، حتى أخبروه بأنه سينتقل للعيش مع عمه الوحيد في منطقة نائية في الريف بعيداً عن المدينة، وبعيداً عن بيته، وبعيداً عن كل ما يعرف.

سيشتاق إلى أصحابه في المدرسة.

تذكر كيف انصبت دموعه، عندما نظر إليه عمه الذي جاء ليأخذه، لم ينظر إليه كما فعل البقية، ولم يعامله بعطف أو شفقة، بل كان ينظر إليه نظرة غير مرحِّبة، بعينٍ حادة، ترمقه من رأسه حتى أخمص قدميه، وكانت أول جملة قالها له: «كُفّ عن البكاء، لم أعهد والدك بكّاءً». عندها، انقطع الشلال، فجفت دموعه وأخذ وعداً على نفسه ألّا يبكي ثانية أمام عمّه.

تغير الطريق فجأة فأصبح صخرياً وعراً، أيقظه من أحلامه التي كان عليه أن ينساها. كم مضى عليهما من الوقت في الطريق؟ ساعتان، ثلاث؟ أم الدهر كله؟ توقفت سيارة عمه عند بوابة أكل الصّدأ كل جزء من أعمدتها الحديدية. خرج عمه من العربة ودفع البوابتين بخفة. يبدو أنه يتمتع بقوّة بدنية كبيرة رغم تقدمه في السنّ. في بيته، كانت البوابة تفتح بجهاز التحكم عن بُعد، ودون أن يضطر والده أو والدته إلى النزول من السيارة لفتحها.

رجع العم ذياب إلى العربة وأدخل «البيك أب» عبر مدخلٍ وعر ضيق. وصلت العربة إلى نهاية مفترق طريق؛ أخذ العم طريق اليمين. حدّق خليفة باتجاه اليسار وتساءل في نفسه إلى أين يؤدي لكن ما هي إلا ثوانٍ وتوقفت السيارة أمام بيت ذي طابق واحد بطراز شعبي قديم تحيط به أشجار النخيل وأشجار الغاف[1] والشِرِيشْ[2]. بدا منظرها في الظلام مخيفاً. جعله يتساءل عن أنواع المخلوقات التي قد تختبئ داخلها.

شعر خليفة بغثيان يسيطر عليه. لا يرغب في العيش هنا، لا يريد. فكّر أنّه متى أغمض عينيه سيختفي هذا الكابوس ويعود إلى بيته، بين أحضان والديه. لكن السيارة توقفت، وفتح أحدهم بابها فجأة، وقفزت في وجهه طفلة صغيرة تبدو في الثالثة من عمرها وصرخت:

«أبي! من هذا؟».

(1) الغاف: شجرة الغاف تنبت في الصحراء العربية ويوجد منها الكثير في دولة الإمارات، ولأهمية هذه الشجرة من الناحية البيئية أقيمت لها محمية بجهود حكومية.

(2) الشِرِيشْ: تعرف أيضاً بشجرة النيم ومعروفة بفوائدها الكثيرة، بالأخص في توفير الظلال وصدّ الرياح.

زيارة إلى الإسطبلات

طاخ! طاخ! طاخ!

«خليفة هيا قم. حان وقت صلاة الفجر!».

قفز خليفة من فراشه والعرق يتصبب على جبينه. لا يعلم من أيقظه بالضبط. هل هو صوت طرق عمه على باب غرفته، أم الكابوس! منذ انتقاله عند عائلة عمه في مزرعتهم منذ أكثر من أسبوع، والغريب أن الكابوس يتكرر نفسه، يبدأ راكباً غيمة رمادية تتحرك بسرعة فائقة دون توقف. يحاول خليفة إيقافها لكن لا يستطيع، فيقع لأنه لا يعرف كيف يبقى على سطح الغيمة. وفي اللحظة التي يقع فيها، يستفيق في بركة من العرق.

سمع خليفة صوت عمه يناديه فهرع إلى المسجد القريب من مزرعته، فلم ينتظره العم. منذ أول يوم قابله فيه، ذكّره بأنه

لـن يتحمـل أن يـرى شـاباً في عمـره لا يصـلي في المسـجد. خليفـة في الثالثـة عـشرة مـن العمـر، لم يكـن يصـلي في المسـجد قـط حـين كان مـع والديـه عـدا صـلاة الجمعـة. واظـب أبـوه عـلى الصلـوات كلّهـا في المسـجد، ولم يضغـط عـلى خليفـة كثـيراً كـي يرافقـه. مـرّ أسـبوعان منـذ وصولـه إلى المزرعـة وأحـس كأنهـما سـنتان.

عنـد وصـول خليفـة إلى المسـجد توضـأ، وحـين أوشـك عـلى دخـول المسـجد أدرك أنّ الجميـع قـد فـرغ مـن الصّـلاة. نظـر إليـه العـم نظـرة تنُـمُّ عـن عـدم الرضـا. أنـزل خليفـة عينيـه متسـائلاً إن كان عمـه يعـرف كيـف يبتسـم أو يـدرك معنـى الابتسـامة أم لا. دخـل خليفـة المسـجد ليصـلي صلاتـه وحيـداً كالعـادة.

* * *

عـاد خليفـة إلى غرفتـه المتواضعـة المتصلـة بالمنـزل. كانـت الغرفـة الوحيـدة التـي لهـا بـاب مسـتقل وخـاص بهـا، يفتـح مـن الخـارج. وكأنهـا قـد بُنيـت في الأصـل مخصّصـة للضيـوف أو الخـدم. كانـت زوجـة عمـه نـورة تقـوم بمعظـم الأعـمال المنزلية مـع ابنتيْهـا: سـلامة في الرابعـة عـشرة مـن عمرهـا، وهنْـد في العـاشرة. لم تتحـدث إليـه الفتاتـان إلا نـادراً منـذ وصولـه. الوحيـدة التـي كانـت تقريبـاً تهجـم عليـه كلـما تـراه هـي خديجـة الصغـيرة. لم ينسَ كيـف اسـتقبلته أول يـوم حـين فتحـت بـاب السـيارة وقفـزت في وجهـه.

ابتسم خليفة عندما تذكرها فهي تضحكه بتصرفاتها الشقية. لم يرَ طفلة في الثالثة من عمرها مثلها ببنية قوية وشخصية متسلطة حتى على والدتها. لم تكن جافة كوالدها وأُختيها الكُبرَيَين، بل طيبة معه تبتسم كلما رأته بل وتطالبه أن يلعب معها.

كلّما سمع خليفة صياح الديك معلناً بدء اليوم، قفز فزعاً من صوته المتحشرج المزعج، حتى اعتاد الأمر. فاتخذ من صياح الديك منبِّهاً يعلمه بنهوض الجميع. لم يرغب أن يروا فيه شخصاً كسولاً، ينام حتى الضحى. هذا ما اعتاده في الإجازات حين كان يعيش في المدينة. خرج خليفة من غرفته وجلس على درج عتبة بابه يراقب الدجاج وقد خرجت من قنّها تُنَقْنِقُ وتنبش الأرض بحثاً عن الحبوب. يحب مراقبتها، فهو يراها مخلوقات غبية تتعارك من أجل دودة أو نملة أو أي حشرة مقززة.

الحشرات موجودة في كل مكان في هذه المزرعة، وقد سئم من تسلق السماسيم على ذراعه أو أقدامه، وكأنها تعتبر جسده معبر مشاة لها أو جسراً ينقلها من نقطة إلى أخرى، يتركها في البداية تمشي فوق يده أو ذراعه حتى تعلَّم درساً حين قرصته واحدة، وأحس وقتها أن الدنيا كلها تعانده. لم يتحمل الوجع الذي كان كبيراً، وحتى زوجة عمه لاحظت ضيقه عند العشاء وأعطته بقايا ليمونة ليفركها على موضع اللّسعة، فازداد الألم،

فجعلت سلامة تضحك عليه، فنهره عمّه كي يكف عن التباكي.

كان عمه لا يرجع إلى البيت بعد صلاة الفجر، لذا كان خليفة يفطر مع زوجة عمه وبناتها. قالت له نورة إن عمه يأخذ فطوره ويذهب إلى الإسطبل في الطرف الآخر من العزبة. سمع صوت باب البيت يفتح، وتفاجأ حين شاهد عمه ذياب عند عتبة الباب. وقف خليفة احتراماً.

«انتهت فترة النقاهة. ستأتي معي إلى الإسطبل من الآن فصاعدًا!». قال عمّه بنبرة صارمة.

«أنا أخاف الجياد». قال خليفة بصوت خافت لعمه الذي يقود «البيك آب» باتجاه الإسطبل.

«ألا تخجل أن تقول إنك خائف؟». قال عمه بازدرائه المعهود، ثم أكمل: «ألم يعلمك أبوك كيف تتغلب على مخاوفك؟».

بلع ريقه بصعوبة، لماذا لا يكف عن ذكر والده أمامه. ألا يعلم أن جرح خليفة مازال ينزف؟

«أنا لا أعرف شيئًا عنها». أجاب خليفة.

«لا داعي أن تعرف شيئًا. ستقوم بما أخبرك به مباشرة من دون تدريب، لا وقت لدي لتعليمك».

وصلا عند ساحة مفتوحة يتوسّطها إسطبل كبير. هبّت رائحة كريهة وهاجمت منخري أنف خليفة، وكأنه أُصيب بلكمة في وجهه. غطى بيديه الاثنتين أنفه، وصرخ:

«ما هذه الرائحة الكريهة!».

«هههههه ستعتاد الأمر. من الآن فصاعدًا ستكون هذه الرائحة عطرك المفضل شئت أم أبيت». أجاب عمه بتهكم ساخر.

ركن سيارته «البيك آب» في المرآب، ثم ترجل وأشار لخليفة أن يتبعه. حاول خليفة أن يتمالك نفسه دون أن يغطي أنفه بيده. لكنه أحس بغثيان، تمالك نفسه. أخذ نفساً عميقاً لتهدئة معدته الصائمة، فهو لم يفطر بعد، ولا يعلم إن كان باستطاعته أن يتناول أي طعام مع وجود هذه الرائحة.

مشى العم إلى البرزة[1]، وهي منطقة مرتفعة قليلًا بالقرب من الإسطبل، وأشار إليه أن يحضر كيس الفطور. يغطي أرض البرزة سجاد من الصوف الأفغاني وتوجد بعض الوسادات السميكة موزعة على شكل حرف الباء. ويغطي البرزة من فوق سقف من العريش[2] لحجب أشعة الشمس. يوجد في

(1) البرزة: مجلس خارجي يتجمع فيه الرجال لشرب القهوة وقضاء الوقت في الحديث.

(2) العريش: سقف مصنوع من سعف النخيل الجافة.

بيت والد خليفة برزة أيضاً، ولكنها تختلف كثيراً؛ حيث يطغى عليها الطابع الحديث بكنبات مصنوعة من الجلد. كان أبوه يستقبل أصدقاءه فيها ويرتشف القهوة ويتسامر معهم، أما برزة العم فتبدو مهترئة جدًا، مما يجعل خليفة يشك في أن يكون لعمه أصدقاء يتجمعون عنده.

نفض خليفة الغبار عن المكان قبل أن يجلس. سكب العم الشاي الذي حضّرته زوجته وسكب لخليفة قدحاً أيضاً. فتح علبة الخبز وأخرج رغيف خبز الخمير المدهون بالسمن وقطرات من المهياوة[1]. يحب خليفة هذا الخبز لكنه لم يحب الشاي لأنه كان ثقيلًا وقليل السكر. حاول تناول قطعة من الخبز فلم يستطع؛ لأن الرائحة الكريهة تأتي مع هبوب النسيم. لم يتحدث عمه. ظل يتأمل الجبال من بعيد، يأكل بنهم، ويرتشف الشاي بصوت عال. انتبه إلى طعام خليفة فوجده لم يتغيّر.

«لماذا لم تنهِ فطورك؟»

«لست جائعاً!»

«أنْهِ فطورك الآن لأنك ستجوع بعدها، وأعِد الباقي إلى السيارة».

(1) المهياوة: سائل مالح مصنوع من السمك المجفف يستخدم كبهارات للخبز في الخليج العربي.

حاول خليفة بلع آخر قطعة، وكاد أن يغصّ من الشبع لكنه تمالك نفسه. أخذ باقي الطعام إلى السيارة ثم تبع عمه متجهاً إلى الإسطبل. لم يكن الإسطبل مثل باقي الإسطبلات التي اعتاد رؤيتها في الأفلام والتلفزيون. كانت منطقة مسوّرة من الحجر مكشوفة من دون سقف. داخلها غرف صغيرة بأسقف من العريش مصفوفة على طول السّور. ما إن فتح العم بوّابة الإسطبل حتى تعرض خليفة إلى هجوم آخر من رائحة الخيل. تقدم خطوتين على الرمل الذي كان يغطي أرضية الإسطبل فأحس بدوار، لم يتمالك نفسه، وتقيأ ما تناوله. سمع عمَّه يشتمه، وتناهى إلى سمعه أيضاً صهيل الجياد يصدر من الغرف، وكأنها تضحك عليه!

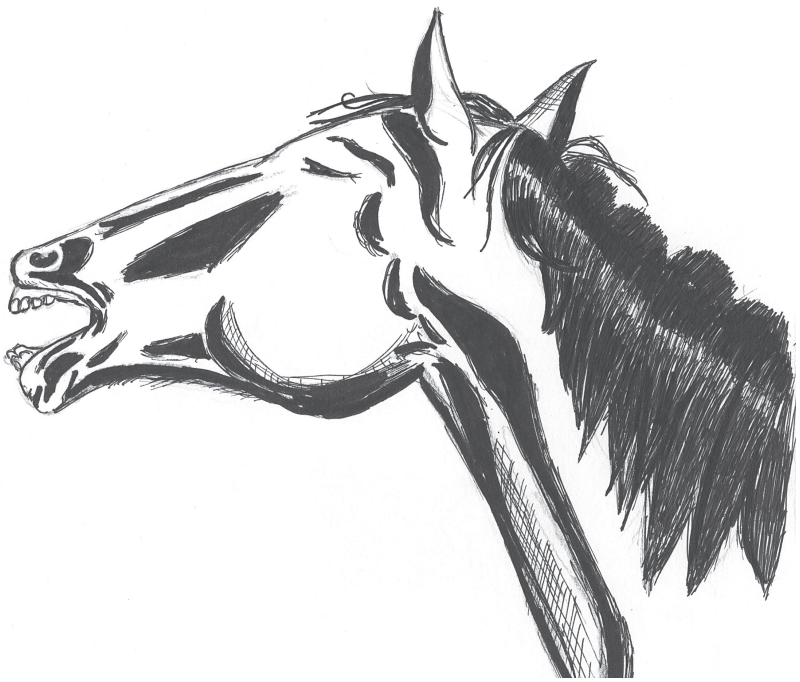

خبير الروّثْ

لـم تكـن الأيـام التـي تلـت هـذه الزيـارة سـهلة علـى خليفـة. كانـت أولـى مسـؤولياته تنظيـف الإسـطبل مـن فضـلات الجيـاد. يملـك العـم ذيـاب سـتة خيـول، أحـد الخيـول يخـص عميـلاً لـه كان قـد تركـه فـي الإسـطبل مقابـل مبلـغ زهيـد؛ لأنـه لا يملـك إسـطبلاً خاصـاً بـه.

أخبـره عمـه بـأن عليـه أن يتأكـد مـن نظافـة الإسـطبل مـرة فـي اليـوم. عليـه جمـع روث كل خيـل بعـد إخراجـه مـن مربطـه[1] وكشـط كومـة الفضـلات وجمعهـا فـي دلـو لرميهـا خارجـاً فـي كومـة النفايـات، ونَخْـلُ الرمـل الملـوّث بالبـول بواسـطة المِـذْراة. طبعًـا لـم يكـن باسـتطاعة خليفـة إخـراج الخيـل بنفسـه لأنـه يهابهـا ويخـاف الاقتـراب منهـا. كانـت رائحتهـا كغـاز سـام بالنسـبة لـه،

(1) المربط: الغرفة التي يقطن فيها الخيل.

وفي كل مرة يرجع إلى غرفته يستحم لفترة طويلة حتى يزيل الرائحة التي التصقت بكل جزء فيه وتزكم أنفه.

«لماذا عليّ أن أقوم بهذا، عمي ذياب؟». سأله مرةً.

«هل تحب أن تعيش في غرفة مليئة بالفضلات؟». كانت إجابته.

لكنه لم يقتنع بهذا الجواب فسأل ثانية زوجة عمه نورة حين كان يساعدها هي وابنتها هِنْد في حمل أكياس التسوق إلى البيت. تدخلت هِنْد قبل أن تجيب والدتها:

«ألا تعرف شيئًا عن الخيول؟». سألته هِنْد باقتضاب.

هز خليفة كتفه محرجاً بالنفي. إذ لم يكن من المعقول أن تتحدث فتاة أصغر منه بثلاث سنوات بهذه الطريقة. أخذت نفساً طويلاً ثم تدفقت الكلمات من فمها بسرعة قصوى. حاول خليفة جاهداً أن يتابع ما تقوله.

«أولاً، حتى يكون الهواء نقياً فأنت لا تريد من الخيل أن يستنشق الهواء الملوّث. ثانياً، الأوساخ في الأرض تتخلل حوافر الجياد فتسبب لها عفناً يؤثّر في جريها. ثالثاً، النظافة تبعد الحشرات خاصة الذباب التي تنقل الأمراض».

نظر خليفة مطولاً إلى هِنْد؛ جدائلها الطويلة ملوية كقوالب الكعك على جوانب رأسها، لم تكن لديها غرّة؛ فقد كانت ملمومة مع جدائلها المشدودة حتى لا يتطاير شعرها في كل مكان. كانت هزيلة جداً إلى درجة أنه يخيل إليك أن نسمة هواء بإمكانها أن تطيرها. بالرغم من ضآلتها فقد كانت تحمل صندوق الماء بسهولة. كانت دائماً ترتدي سروال جينز وفوقه قميص طويل يبدو وكأنه ثوب قصير. ولأول مرة ينتبه إلى عينيها العسليتين، نفس لون عيني أبيه.

«ما بك، أرأيت شبحاً؟» قالت هِنْد حين لاحظت صمته ورمقه لها.

تمالك خليفة نفسه ثم قال:

«لا، لكن هذه أول مرة تتحدثين فيها أكثر من دقيقة».

ضحكت والدتها ومسحت على شعر خليفة الأسود الكثيف. وقالت:

«أنت على حق؛ لكن حين يتعلق الموضوع بالجياد، فإن هِنْد لن تتوقف عن الكلام أبدًا. فهي تعشقها».

عبست هِنْد ورمت الأكياس على الأرض وخرجت من المطبخ.

مضت أسابيع وأشهر وخليفة ليس له عمل سوى تنظيف أكوام وأكوام من الروّث، وكشْط ونخْل الرمل الذي يُلطخ أرضيات الإسطبل ومقصورة كل خيل. كان يسخر من حاله بأنّه لو استمر على هذه الحال فسيتم تسجيله في موسوعة

غينيس[1] للأرقام القياسية كأكثر شخص ينظف روث الخيول. وسيطلقون عليه «خبير الرَّوث».

كان يشعر أحيانًا بأن هذه ليست حياته، بل وكأنها أحداث فيلم لا يريد مشاهدته ولا يعلم نهايته.

كم هو مشتاق إلى حياته الماضية! تذكَّرَ البيتَ الحجريَّ ذا الطابقين الذي كان يسكن فيه، والباحة الكبيرة التي كان يلعب فيها مع أولاد الجيران كرة قدم، تذكَّر والدته بحرقة حين كانت تطلب منه أن يستحم بعد ممارسة الرياضة في الخارج، وكان يحضُنها لمداعبتها ويتحدَّاها أنّه مجرد عَرَق وليس قذارة. والآن كل ما يريده هو الجلوس في حوض جاكوزي حار مع فقاعات الفانيليا والفراولة ثم يغمر أمه بهذه الرائحة حين يحضنها.

فتح عينيه حين سمع صراخاً خارج الباب، كان يأخذ قيلولة قبل صلاة العصر، والآن هربت منه القيلولة بسبب الإزعاج خارج غرفته، ثم سمع صوت هِنْد وهي تقول:

«لكنني أفْضل منه في العمل وأعْرف أكثر منه!».

جلس خليفة على سريره منتبهًا. إنه صوت هِنْد.

(1) غينيس: هو كتاب مرجعي يصدر سنويًا، يحتوي على الأرقام القياسية العالمية.

«أعـرف أنـك أفضـل منـه، لكـن لا أريـدك أن تقومـي بـأي أعمـال فـي الإسـطبل مـن الآن فصاعـدًا».

أجاب عمه ذياب.

وقـف خليفـة. إنهمـا يتحدثـان عنـه، لا يريـد أن يسـمع، لكـن أيـن سـيذهب؟ إذا خـرج مـن غرفتـه فسـيرونه.

«لكني أحـب الخيـول يـا أبـي! أرجـوك! وأنـت تعلـم جيـدًا أنـه لا مانـع عنـدي مـن تنظيـف الإسـطبلات!» قالـت هِنْـد وهـي علـى وشـك البكاء.

«قلـت كفـى! لا أعتـرض أن تحضـري وتراقبـي الجيـاد، لكنـك فتـاة، وهـذه الأعمـال لا تليـق بالفتيـات».

ومن قال أن هذه الأعمال تليق بالذكور فقط؟!!

كانـت هِنْـد ترافـق أباهـا دائمـاً وتسـاعده فـي العنايـة بالإسـطبلات. غريـب أمـر هـذه الفتـاة، قـال خليفـة فـي قـرارة نفسـه؛ الفتيـات لسـن هكـذا. تذكَّـر خليفـة ابنـة عمتـه حنـان التـي كانـت فـي مثـل سـنه؛ دائمـاً ترتـدي الفسـاتين ولا تتحـدث إلا عـن المكيـاج والممثليـن وتتابـع وتلاحـق الموضـة علـى «الإنسـتغرام».

سمع طرقاً على بابه. ذهب خليفة مباشرة وفتحه فوجد نفسه وجهاً لوجه مع عمه.

«ها، استيقظت؟»، لم ينتظر جواباً من خليفة، «آن الأوان لاختبارك. اذهب إلى الإسطبل وحدك اليوم واحرص على وضع الطعام للجياد، لدي أعمال في المدينة، وربما أعود غداً».

«إن شاء الله عمي؛ لكن، كيف أصل إلى الإسطبل؟ فالمسافة بعيدة إن كنت سأذهب على قدميّ».

«يمكنك استخدام دراجة هِنْد الهوائية في المرآب». ثم التفت واتجه لسيارته.

«أبي، لا، هذه دراجتي!». لحقت هِنْد أباها، «أبي لن أسمح له؛ أخذ مني عملي ولن يأخذ دراجتي!».

التفت العم ذياب فجأة باتجاهها وصرخ:

«قلت لكِ كفى! كانت أكبر غلطة لي حين اشتريت لك الدراجة». هدأ قليلاً حين اغرورقت عيناها بالدموع، ثم قال بهدوء، «اذهبي إلى أمك فهي بحاجة لك أكثر من الخيل».

ثم ركب «البيك آب» وانطلق مبتعداً عن البيت. ظل خليفة

واقفاً يتمنى لو كان لديه رداء التخفي الذي يملكه «هاري بوتر»[1]. مشى بخُطاً مترددة إلى المرآب وكان عليه أن يمر بجانب هِنْد التي لازالت تبكي بحرقة وهي واقفة تحت حرارة شمس العصر. وقف بتردد بجانبها وقال محاولاً مواساتها:

«أنا آسف هِنْد...».

«كله بسببك!» صرخت في وجهه وركضت إلى البيت وصفقت الباب خلفها.

أخذ خليفة نفساً عميقاً وركب الدراجة الهوائية من المرآب وانطلق باتجاه الإسطبل. على الأقل هو يعرف كيف يقود الدراجة الهوائية. كانت أصغر من حجمه وتحتاج العجلات إلى الهواء. ركبها فلم يكن له خيار. انطلق بسرعة جيدة فأحسّ بالهواء المنعش يلفح وجهه، ولبرهة شعر بأنّه تحرّر من الضيق الذي مرّ به للتو.

(1) هاري بوتر (Harry Potter) سلسلة من الكتب للكاتبة البريطانية ج. ك. رولنغ؛ تحكي حكاية الصبي الساحر هاري بوتر، منذ اكتشافه لحقيقة كونه ساحراً، وحتى بلوغه سن السابعة عشرة، فتكتشف ماضيه وعلاقاته السحرية وسعيه للقضاء على سيد الظلام: بطل كتاب القصة المتسلسلة Harry Potter.

حدث غير متوقع

وصل خليفة الإسطبل لأول مرة دون عمه. لم يجد الموظفين الذين يساعدون العم أثناء التدريبات. عادة لا يأتي المتدربون يوم الجمعة لأنه نهاية الأسبوع. يقول العم إنه يدرّب الفرسان، لكنه لا يستطيع تخيل عمه مدرباً للفروسية؛ كيف يطيق الفرسانُ عصبيةَ ومزاج عمه المقيت؟ لم يحضر خليفة أياً من التدريبات التي تقام في بقعة بعيدة عن الإسطبل بضعة كيلومترات. وهو ليس مهتماً بالتدريبات من الأساس ولا بأي شيء يخص الجياد.

من ضمن مهامه الأخرى، كان على خليفة تنظيف وترتيب أدوات الجياد وهي كثيرة جداً وأسماؤها معقدة أكثر. الشيئان الوحيدان اللذان تذكر أسماءهما هما السرج والخطام، ولم يكن متأكداً أيضاً من كيفية استخدامهما. بعد أن قام بتنظيفها وتلميعها، خرج ليستنشق الهواء النّقي؛ فمازال لا يحتمل تلك

الرائحة. ولم يكن متحمّسًا أيضًا لإطعام الخيول، فهو يخاف أن ترفسه أو تقضم يده.

يا له من اختبار مرعب وضعه عمه فيه!

عادةً، يقوم العم أو مساعدوه بإطعام الجياد ثلاث مرات في اليوم. يفضل العم تأدية ذلك بنفسه معظم الأحيان، لكنه يطلب من خليفة أن يراقبه في حال توجب عليه أن يذهب إلى المدينة لأداء بعض الأعمال. قضى خليفة وقته في مراقبة عمه وهو يطعم الجياد بدلاً من تعلم كيفية إطعامها. يتغير وجه عمه العابس بتجاعيده وهو يتحدث إليها بحنان، فيبدي مشاعر لم يتوقع خليفة أنها في قاموس عمه.

سمع خليفة صوتاً غريباً يصدر خلفه وحين التفت ليتأكد لم يرَ شيئاً، اندهش من ذلك، تساءل إن كان ربما أوقع حصان دلوًا أو ركل باباً. ذهب ليصلي المغرب في مكتب عمه. عليه أن يسرع ويطعم الجياد وينهي ذلك بأسرع ما يمكن ويترك المكان ذا الرائحة النتنة سريعاً. دخل إلى الإسطبل ثم تسّمر مكانه. كانت هِنْد واقفة تمسك دلواً في يدها ونظرات العتاب في عينيها.

«لماذا لم تطعم الخيول بعد؟ انظر كم هي جائعة!» هتفت.

«ماذا تفعلين هنا؟».

«أطعمها! ماذا تعتقد؟».

«حسـنًا، يجـدر بـك أن ترحلـي. أنـتِ لا تريديـن إغضـاب والـدك».

تقدم ليأخذ الدّلو. رجعت إلى الخلف وقالت بغضب:

«سأبقى، لا أثق بك. أنت لا تعرف شيئًا».

وقـف خليفـة برهـة يراقـب وجههـا الغاضـب، حقـاً تبـدو مخيفـة بوجههـا المحتقـن. لا يصـدق أنهـا مشـت المسـافة كلهـا علـى الأقـدام مـن البيـت إلـى الإسـطبلات، ربمـا اسـتغرقها نصف سـاعة. تمتلـك شـجاعة لـم يعهدهـا فـي فتيـات فـي العاشـرة مثلهـا. كيـف خرجـت مـن البيـت دون علـم والدتهـا؟ ألـن يلاحـظ أحـد غيابهـا؟ إذا عـرف عمـه سـيوبخه بالتأكيـد! رجـع إلـى الخلـف وقـال:

«لدي ما يكفيني من عمي. لا أريد مشاكل معه».

«لـن يعلـم بأمـر وجـودي». ثـم تغيـرت نظرتهـا إلـى ريبـة وقالـت بحـدة «إلا إذا أخبرتـه أنـتَ!».

أخذ خليفة نفساً عميقاً. كان مترددًا. لكنه قال:

«أنـت علـى حـق؛ لا أعـرف شـيئًا عـن الجيـاد، وأعتـرف... بأنـي أخـاف».

«تخاف منها؟ هل هي ديناصورات؟» قالت بتهكم مقلدة أباها.

«لا، بل أخاف منك!» قال خليفة ببساطة.

ظهرت نصف ابتسامة على وجهها أَخْفَتْها بسرعة قبل أن ينتبه لها.

ضغط خليفة على أزرار مفاتيح المصابيح لأن الظلام حلّ في المكان. نظر إلى ساعته الرياضية التي اشتراها له والده حين حصل على درجات جيدة في الصف السابع. كانت ساعة رقمية تمكنه من الدخول إلى شبكة الإنترنت، لكنه لا يستطيع ذلك الآن لعدم وجود جهاز يوصل الإنترنت في بيت عمه أو الإسطبل. أشارت الساعة إلى السادسة مساءً، وقد حان وقت إطعام الجياد.

أخذت هِنْد تغرف البرسيم من برميل وتضعه في دلو الخلط؛ أضافت له الجزر والشمندر ثم فتحت باقي البراميل التي تكمل غذاء الخيل وغَرَفت كلاً من الشعير، وفول الصويا، وبذور الكتان وخلطتها جميعاً في السطل الآخر حتى توزعه في سطل الطعام الخاص بكلّ جواد. كانت تتحرك بخفة وتعلوها نظرة متزنة أو بالأحرى رائقة المزاج.

الظاهر أن هذا الاهتمام الزائد لدى الخيول متوارث. وقفت تحمل الدلوين في يديها، لكنه تقدم نحوها:

«لا عليك، سأحملهما أنا».

«لا أريدك أن تساعدني. هذا عمل أستمتع به وأنت سلبته مني». قالت وهي تتراجع إلى الخلف..

تجاهل خليفة الاتهام وقال:

«انظري، لـمَ لا نتفق على شيء؟ أنا سأحمل الدلوين وأنتِ ضعي الطعام في المعْلف»[1].

سكت لبرهة حين شاهد ترددها ثم أكمل خليفة:

«ولن أخبر عمي».

ظلت صامتة تراقب وجه خليفة، تفكر إذا كان أهلاً للثقة. ثم زفرت طويلاً وقالت:

«حسنًا».

«هدنة؟» سأل خليفة.

«لا» هتفت ثم فتحت قفل أول مقصورة للحصان البني السمين، وقالت بصوت يغمره حنان زائد. «كرّووووش» ثم سمعها تقهقه وكأن أحدًا كان يدغدغها. غريب لماذا تضحك؟ تساءل خليفة.

أمال خليفة رأسه إلى الداخل ليرى ما يجري فشاهد الحصان البني أو «كرّوش» يقرب وجهه من رأسها.

«كرّوش؟» ضحك خليفة. «لم أعرف أن لديه اسماً!».

«هذا لأنك غير مهتم، كل جواد له اسم».

(1) المعلف: دلو أو سطل الطعام.

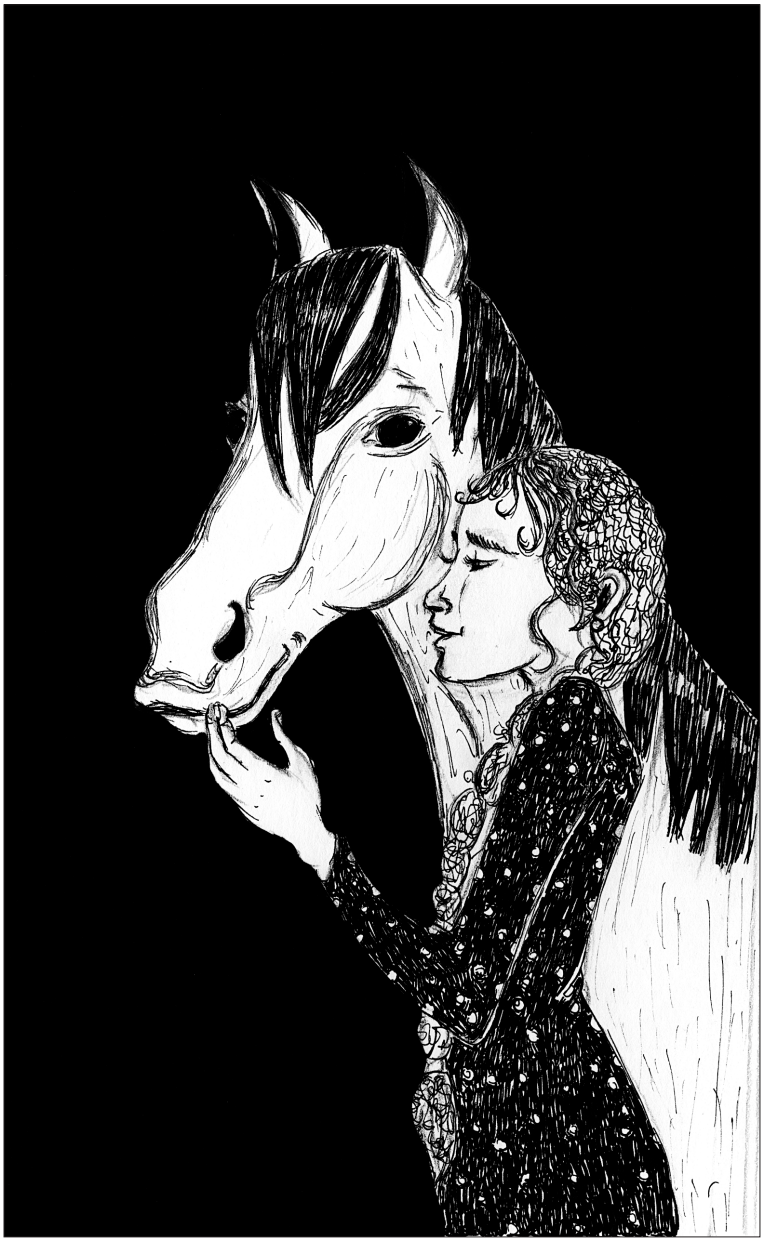

غرفت للحصان من السطلين اللذين يحملهما خليفة وسكبت العلف في الدلو الخاصّ بـ «كرّوش» المثبت في الجدار. أقبل كرّوش على الطعام بنهم. «بالهناء والعافية» قالت وهي تربت على بطنه. ثم خرجت ورجعت بسرعة حاملة في يدها حزمة من الحشيش الأخضر، ووضعته في زاوية المقصورة.

«آه نسيت الحشيش». قال خليفة وهو يشعر بأنه غبي؛ كيف له أن ينسى الحشيش؛ فهو من العلف الأساسي لتغذية الخيول! تنهدت ثم وضعت يديها على خصرها وقالت:

«ألن تحضر الماء؟».

كان واقفاً يحمل الدلوين في يده. أنزلهما بسرعة وذهب ليحضر كوز الماء البلاستيكي الكبير ليسكب الماء في الوعاء الخاصّ بكرّوش». ثم استدرك حين تذكر أنها أمرته بإحضار الماء، فقال:

«ظننت أنكِ لا تحتاجين إلى مساعدتي».

فجأة، سمعا صوت باقي الخيول تصهل معلنة جوعها.

«الأفضل لنا أن نتحرك». قالت وهي تخرج من المقصورة وجدائلها تتطاير خلفها!

* * *

وهكذا، قضيا الوقت يطعمان الجياد، وفي كل مرة تدخل هِنْد تُسلِّم على كل حصان باسمه وتداعبه وتلامسه قبل إطعامه. كانت الجياد تعرفها فتقترب منها وتلثمها أو تنفخ على جدائلها، بل تمضغها أحياناً. وتعلَّم خليفة من هِنْد أسماء الخيول مثل: شقراء، بدور، عنبر، وصخر. لم يكن خليفة يصدق أنه مضت أشهر ولم يتعرف على أسمائها إلا من خلال هذه الفتاة.

«مليحة!» صرخت هِنْد حين دخلت مقصورة الفرس مليحة. ماذا الآن؟ فكّر خليفة فهو تعب وجائع أيضاً ويريد أن يستحم طويلًا قبل العشاء اللذيذ الذي تعدّه نورة زوجة عمه. ترك ما بيده ودخل المقصورة ليرى ما هناك. تسمّر في مكانه. كانت الفرس تتقلب على الأرض كالجرو ثم تقف وتركل القش وتصدر أصواتاً غريبة. وهِنْد تحاول الاقتراب لتهدئتها. دون تفكير، أمسك خليفة بذراع هِنْد وسحبها إلى الخارج.

«إيييه، أنت! ماذا تفعل؟» صرخت هِنْد.

أعطاها خليفة ظهره، وأقفل باب المقصورة.

«دعني أدخل!» أمرته والشرر يتطاير من عينيها.

«لا! أجننت؟ إنها هائجة! ستقتلك!» رد عليها خليفة بحدة.

«ليست هائجة يا غبي! إنها على وشك أن تلد!» هتفت هِنْد.

مليحة

صمت خليفة لأنها شتمته. لكنه لم يردّ عليها لأنها صغيرة وتافهة، والأهم قالت شيئًا آخر صدمه أكثر من الشتيمة.

الفرس ستلد! ستلد! صعق خليفة من الخبر. لم يكن يعرف حتى أن إحدى الجياد حبلى! كان يعتقد أنها سمينة ليس إلا.

«ستلد؟ كيف عرفت؟» سألها باستغراب، وقبل أن تجيب، سمعا صوت انسكاب ماء. نظرا من فتحة الباب إلى الفرس مليحة، فاكتشفا أن الماء يخرج منها.

«أرأيت؟ انفجر الماء! ستلد في أي لحظة!».

أحس خليفة بالغثيان.

«ماذا نفعل؟» رد عليها خليفة بتوتر.

حمحمت الفرس فحاولت هِنْد مد يدها من خلال فتحة الباب لتهدئتها:

«شششششش... لا تخافي». ثم قالت له من بين أسنانها: «لا ترفع صوتك فأنت توترها».

رفع خليفة يديه متأسفاً وقال:

«أنا آسف، أنا آسف».

«اذهب وأحضر أمي».

«وماذا عنك؟ هل ستبقين وحدك هنا؟».

«لن أتركها وحدها في هذا الظرف!».

«لا، ستأتين معي».

«الدراجة لا تتسع إلا لشخص واحد، اذهب أنت».

«قلت، لن أتركك وحدك. تحركي معي الآن، هذه المرة ستسمعين كلامي».

لم يصدق خليفة عينيه حين رأى هِنْد توافق مباشرة وتخرج من الإسطبل مسرعةً. للوهلة الأولى اعتقد أنها ستعانده، لكنه تنفس الصعداء ولحقها إلى الخارج بعد أن أقفل مقصورة المسكينة مليحة. طلب منها أن تجلس على الدراجة.

«وماذا عنك؟» سألت هِنْد. ابتسم خليفة وقال:

«كنت عدّاء في نادي مدرستي. انطلقي! سألحق بكِ».

وصلا معاً إلى البيت. جلس خليفة على الدرج ليلتقط أنفاسه ينتظر أن تخبر هِنْد والدتها. فُتِحَ الباب فجأة وقفز جسم صغير على ظهره. «خلوفي!» هتفت خديجة الصغيرة. استنشق خليفة رائحة مسحوق البودرة التي تضعها أمها بعدما أن تحمّمها، تذكر خليفة رائحته فأبعد ذراعيها الصغيرتين برفق من حول عنقه التي تتصبب عرقاً.

«خوخة! اذهبي للداخل، هيّا!».

«لا! العب معي؟» قالت وهي تجرّه من ذراعه.

اعتاد أن يلعب معها بألعاب الحيوانات الصغيرة المجسمة بعد العشاء. كانت تضحك حتى تأتي لها «الحازوقة» حين يقلد صوت الخيل أو الكلب أو الديك.

«لن أقدر الآن، سأستحم أولًا!» قال خليفة وهو يضحك على الرغم من تعبه.

«ستأتي معنا؟» هتفت هِنْد وهي تخرج من البيت ومفاتيح سيارة في يدها.

«من؟ أنا؟» قال خليفة وهو ينظر إليها باستغراب وهي

تركـض باتجـاه المـرآب. صرخـت مـن دون أن تلتفـت:

«هيا! تعال، سنرجع إلى مليحة».

«لا، ستلعب معي» هتفت خديجة.

ثـم خرجـت نـورة متلحفـة بوشـاحها الأُرْنِي[1] الملـون حاملـة معهـا حقيبـة كبيـرة وسـلّة. كانـت تقـف خلفهـا ابنتهـا سـلامة وعلامـات التأفـف باديـة علـى وجههـا خاصـة حيـن رأت خليفـة. فهتفـت:

«ألـم يعلمـك أبـي كيـف تنهـي أعمالـك؟ لمـاذا عليـك جـرّ أمـي إلـى هنـاك؟».

«سـلامة اهتمـي بخديجـة»، أجابـت والدتهـا عوضـاً عـن خليفة ثـم التفتـت إليـه وأكملـت: «خليفـة ولـدي، خـذ هـذه الأغـراض إلـى السـيارة؛ خوخـة، ادخلـي إلـى البيـت حبيبتـي».

حمـل خليفـة الأغـراض متجهـاً إلـى السـيارة وهـو يسـمع صـراخ خوخـة يمـلأ الأرجـاء. كان يتمنـى لـو يسـتطيع أن يصـرخ مثلهـا ليعبـر عـن رغبتـه فـي عـدم الذهـاب إلـى الإسـطبل ثانيـة. لمـاذا عليهـم الذهـاب أصـلًا؟ كل مـا يجـب أن يفعلـوه هـو الاتصـال بالعـم الـذي تأخـر فـي الرجـوع.

(1) الأُرْنِي: غطاء رأس عريض غير سميك تضعه المرأة في الإمارات وبعض دول الخليج العربي في المنزل. الاسم مشتق من الكلمة الأصلية الأردو.

تفاجأ حين شاهد زوجة عمه خلف مقود سيارة رباعية من شركة «تويوتا FJ». رآها من قبل في المرآب حين أخذ دراجة هِنْد، لكنه لم يعرف أنها ملك زوجة عمه! بعد أن وضع الأغراض في حقيبة السيارة، أنزلت هِنْد شباك المقعد الأمامي حيث كانت جالسة وهتفت باسمه ودَعَتْهُ أن يركب.

ركب خليفة وهو يحس بالإعياء. كان يشعر بالتعب، خصوصاً أنّه لم يتدرب على الجري من مدة طويلة. خرجت السيارة من بوابة المزرعة متجهة إلى الإسطبل. هذه المرة الثالثة التي يذهب فيها إلى الإسطبل ذلك اليوم. كيف ارتبط مصيره به؟ كان هدفه أن يكون بطلاً في العدْوِ. كان أبوه يأخذه إلى النادي أربع مرات في الأسبوع، فاز بالعديد من الميداليات، وكان يحلم أن يفوز بالميدالية الذهبية ويُفرِح والديه. «آه لو كانا والداي على قيد الحياة!» تمنى خليفة.

وقعت في حضنه زجاجة ماء باردة، رفع رأسه فإذا هِنْد ترمقه بطريقة غريبة:

«أكيد أنت عطشان بعد هذا العدو».

«ماذا؟» سألت نورة بدهشة وهي تنظر في المرآة الخلفية إلى خليفة. «هل ركضت من الإسطبل إلى المزرعة؟».

فتح زجاجة الماء وأخذ جرعات من الماء، نزلت في حلقه وأطفأت حريق عطشه لبرهة.

«عادي!» قال وهو يهز كتفه.

«لا، لم يكن عادياً يا أمي. لم أرَ أحدًا يركض مثله! ركض كالخيل!» قالت هِنْد.

* * *

توقفت السيارة بالقرب من الإسطبل واندفعت هِنْد كالبرق إلى الداخل لتتفقد حال مليحة. ترجل خليفة من السيارة وذهب إلى الخلف ليستخرج الأغراض التي وضعها في حقيبة السيارة.

«خالتي نورة، هل اتصلت بعمي؟».

«نعم» قالت وهي تدخل معه بسرعة إلى الإسطبل. ثم قالت:

«هل أنت مستعد؟».

«مستعد لماذا؟».

«لأول مرة في حياتك، ستشهد ولادة فرس». قالت وهي تبتسم وترفع سواعد جلابيتها وتلبس قفازات طبية تصل إلى الكوع.

«نعم، لكن لم يحضر البيطري بعد!».

ضحكت نورة وقالت:

«أنا هو البيطري».

فتح خليفة فمه لفترة طويلة. هل سمع جيدًا؟ نورة زوجة عمه طبيبة بيطرية؟

«أمي!» هتفت هِنْد من عند مليحة.

«هيا بنا، هاتِ الأغراض». قالت نورة.

بلع خليفة ريقه ومشى بتثاقل خلفها. مفاجآت كثيرة في هذا اليوم. أحس أنّه يعيش أحداث دراما لا تُعرَض إلا على شاشة التلفاز.

توالت الأحداث بعدها كشريط سينمائي انحفر في ذاكرة خليفة. ظل منبهراً طوال فترة ولادة المُهْر. زوجة

عمه مبهرة بهدوئها وطريقتها في مساعدة الفرس في الولادة، خاصّة حين تأخر المُهْر في الخروج إلى هذه الدنيا. سحبته بكل لطف وتأنٍّ من أقدامه الأمامية وأبعدت كيس المشيمة عن وجهه حتى لا يختنق.

بعدها ظلت الأم مع صغيرها بلا حراك على القش. تسارعت نبضات قلب خليفة من الخوف وهمس بصوت يرتعش:

«خالتي نورة، إنهما لا يتحركان! ماذا يجري؟».

«لا تخف خليفة، مليحة تسترجع أنفاسها، وكذا أمر مولودها».

ذهبت لتخلع القفازات وتغسل يديها بينما ظل خليفة متسمّراً ينظر إلى المخلوقين بحيرة وتعجب. تنفس الصعداء، لوهلة اعتقد بأن المخلوقين قد فارقا الحياة. هل تعبت والدته حين ولدته؟ اغرورقت عيناه بالدموع لما تذكر والدته وغمازاتها الساحرة عندما تبتسم له. «هل تبكي؟ هل تذكرت والدتك؟» كانت هِنْد تقف بقربه. التفت إليها فوجد تعاطفاً في عينيها وليس تهكماً كما توقع. أومأ برأسه أن نعم. لكنه لم يتحدث؛ فهو لا يريد أن يعلم أحد مدى اشتياقه لوالديه. ربتت على ظهره.

«أنا آسفة» قالت هِنْد بهدوء بالكاد سمعها.

«لماذا؟».

«لأني وصفتك بالغبي».

ضحك خليفة. ثم قال:

«لقد كنت كذلك».

التفتت إليه ولأول مرة يرى ابتسامة ترتسم على وجهها.

«هِنْد وخليفة» سمعا نورة تناديهما.

«هيا، تعالَ» قالت هِنْد.

«لكن... ماذا عنهما؟» أجاب خليفة.

«غريب، أنت الآن من يريد البقاء».

جلس الجميع في الخارج يأكلون شطائر الفلافل التي أعدّتها الطباخة الماهرة والبيطرية المذهلة نورة. أكل خليفة أربع شطائر من شدة الجوع، ثم شربا شاي كرك[1]. بعدها رجعا إلى الفرس مليحة وصغيرها. ابتسم خليفة حين شاهد الصغير يحاول الوقوف. وحمد الله أن الأم قد رفعت رأسها وكانت تطالع صغيرها بين الحين والآخر. كان المُهْر هزيلاً جداً أقدامه كأعواد ثقاب. تساءل خليفة: كيف سيقف الصغير أو يمشي. صعب معرفة لون المُهْر، فقد كان لونه بنياً عكس لون أمه الأزرق الرمادي، ويبدو أنه مازال لزجاً من المادة التي تحيط به حين كان في المشيمة.

(1) كرك: مزيج من أوراق الشاي الأحمر والحليب والهيل والسكر وهي وصفة هندية متداولة في منطقة الخليج.

وقف الصغير أخيراً بعد محاولات عديدة ثم وقع على مؤخرته فضحك خليفة وهِنْد. كانت تراقبه والدته بعينين يملؤهما الحب، ولكنها لم تتدخل في محاولاته لأنها كما يبدو أرادت من صغيرها أن يتعلم بنفسه؛ فقط همهمت له محاولة تشجيعه، فحاول الصغير الوقوف على قدميه من جديد، لكنه انزلق على جنبه وحوافره تدوس كل مكان، والرمل يتطاير حوله. «هيا، هيا، رائع!» صاحت هِنْد مشجعة.

بعد مرور بعض الوقت، استطاعت الأم «مليحة» الوقوف على أقدامها، وكذلك صغيرها، واقتربا من بعضهما. ظلت مليحة تلعق صغيرها وكأنها تعطيه حمّاماً، ولكن نورة أخبرته بأنّها تمنح صغيرها الحنان. سرعان ما أخذ الصغير يدور حول أمه وكأنه لا يصدق أنه يمشي، فكان يقع تارة، ويمشي تارة أخرى ويقترب منها ليتلقى التشجيع. ثم دخلت نورة وأرشدت الصغير إلى حليب أمه حتى يأخذ أول جرعة منه ليمنحه الدفء والمناعة لتحميه من الإصابة بالأمراض. لكنه كان عنيدًا يرجع إلى الخلف ويقع. بعد نحو ساعتين استطاعت نورة استدراج المُهْر وحثّه على رضاعة حليب أمه.

حين قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وتأكدت نورة من أن الأمور كلها جيدة مع الأم وصغيرها، رجع الجميع إلى المزرعة. كانوا مرهقين، حتى إن خليفة غفا قليلاً في السيارة. وحين وصل إلى غرفته، استلقى على سريره دون أن يستحم، وسريعاً غط في نوم عميق.

صديق جديد

قفز خليفة من سريره حين سمع المنبه. انتظر ثوانٍ ثم دوى صياح الديك. ابتسم خليفة؛ فقد سبق الديك هذه المرة. أخيراً اليوم جمعة، إجازة الأسبوع. بعد أربعة أشهر من ولادة المُهْر أصبح لحياة خليفة طعمٌ آخر. بدأ يعتاد على رائحة الخيول التي كان يعتبرها غازاً ساماً، وصار إطعام الخيول عملاً يستمتع به، وخاصةً عندما يحين وقت إطعام مليحة وصغيرها.

دخل الحمام، نظّف أسنانه وارتدى سرواله الرياضي وقميصه القطني «تي شيرت» الذي يرتديه دائماً حين يذهب إلى الإسطبل. صار السروال قصيراً بعض الشيء، فقد مضت ستة أشهر على وجوده في مزرعة عمه.

التحق خليفة بمدرسة المنطقة التي تبعد مشياً عشر دقائق عن مزرعة عمه ماشياً، لم تكن المدرسة كالتي كان يدرس

فيها في المدينة. فمعظم المواد باللغة الإنجليزية على عكس المواد الآن، حيث أكثرها باللغة العربية. خلال خمس دقائق يكون قد وصل المدرسة راكباً دراجة هوائية جديدة اشتراها عمه بعد إصرار من زوجته نورة، أو هذا ما أخبرته به هِنْد.

سمع طرقاً عالياً على الباب. غريب، إنها الساعة الخامسة فجراً! هل هو عمه؟ لكنه طرق خفيف. فتح باب غرفته فوجد هِنْد عند عتبة الباب وفي يدها كيس كبير.

«ماذا يجري؟ هل حصل مكروه للصغير لا قدّر الله؟ ولماذا تحملين كيس جزر وكأنه جائزة؟» سأل خليفة.

«بسرعة!» همست هِنْد، «علينا أن نذهب إلى الإسطبل لإطعام الجياد. العمّال في إجازة اليوم».

وضعت الكيس في سلّة الدراجة وصعدت عليها، ثم تبعها.

«هل يعرف عمي أنك ذاهبة إلى الإسطبل؟» سألها خليفة وهو يصعد على دراجته.

«سأخبره حين أصل إلى هناك». ثم انطلقت أمامه وتبعها.

لا يعلم لمَ يمانع عمه ذهاب ابنته إلى الإسطبل. إنها تعلم جيداً كيف التصرّف مع الخيول، وتعلَّم منها الكثير. أصبحا يقضيان وقتاً طويلاً معاً حين يذهبان إلى الإسطبل بعد أن يعطيها الإذن طبعاً.

«ما هو موضوع الجزر؟» سألها وهما في الطريق.

«ستعلم حين نصل. ما بك كالسلحفاة؟ أنت أسرع على الأقدام منك على الدراجة!» قالت ذلك وهي منطلقة أمامه.

«ماذا قلت؟ آنسة جزرة؟» هتف خليفة خلف غبار الرمل الذي تركته خلفها وهي تبتعد عنه، سمع ضحكتها وهو يلحق بها.

* * *

حين وصلا، ركضت إلى مخزن الطعام وأخرجت دلواً كبيراً وسكينتين للتقطيع. أعطت واحدة لخليفة وجلسا على الأرض. ثم طلبت منه أن يقطع معها الجزر إلى شرائح.

«هذا الجزر للخيول؟» سأل خليفة.

«نعم يحبون وجبة خفيفة بين الوجبات».

بعد أن انتهيا من تقطيع كل الجزر. قاما بتوزيعه داخل دلو الطعام الخاص لكل جواد إضافة إلى بعض العلف. حين وصلا مقصورة مليحة وصغيرها، ثار الصغير قليلاً وبدأ يركل بأقدامه معبِّراً عن استيائه لدخولهما، كان يرضع وتركته أمه حين سكبت هِنْد طعامهما في الدلو. ظلت هِنْد تمسح على بطن الأم وهي تأكل. حاولت استدراج الصغير ومناداته.

جفُّول! هيا يا جفُّول، لا تخجل.

إنـه الاسـم الـذي سـمح العـم بمنـاداة الفلـو الصغيـر فـي الوقـت الحالـي لأنـه حقـاً يبـدو خجـولاً ويجفـل مـن أي شـخص أو حركـة. أخـذت هِنْـد قليـلاً مـن الجـزر مـن الدلـو ومـدت يدهـا المفتوحـة باتجـاه فـم مليحـة التـي التهمـت الجـزر كلـه مـن يدهـا.

«تعـال يـا جفُّـول وجـرّب» قالـت هِنْـد وهـي تمـد يدهـا بمزيـد مـن الجـزر باتجـاه جفُّـول الـذي اختبـأ خلـف أمـه.

«ألن تقضم أصابعكِ؟» سألها بتعجب.

«عليك أن تفتح كفك وتفرده حين تطعمها. هيا حان دورك».

تراجع خليفة خطوة إلى الخلف.

«لا طبعاً لن أحاول، مازلت بحاجة إلى أصابعي».

«أنت تتصرف مثل جفُّول تماماً!» قالت وهي تضحك.

«ها، ها... ليس مضحكاً» رد خليفة مبتسماً.

ثـم أخـذت مزيـداً مـن الجـزر ووضعتـه فـي فمهـا. ظلـت تمضـغ الجـزر فـي فمهـا ثـم ألقـت الخليـط الـذي بـدا كمعجـون برتقالـي فـي كفهـا ومـدت يدهـا باتجـاه جفُّـول. سـرت فـي جسـم خليفـة قشـعريرة هـزت جسـمه مشـمئزاً.

«ها جفُّول، انظر، لذيذ، مممم».

نفـخ نفخـة عاليـة مـن منخـره حينمـا اقتربـت منـه. كانـت أذنـاه

تتحركان سريعاً إلى الأمام والخلف. ثم أخذ بضع خطوات إلى الخلف وقفز وحرّك رأسه بعنف معبراً عن عدم رغبته في تناول الجزر.

«حسناً حسناً، لا داعيَ للعصبية يا عنيد» هتفت هِنْد وهي تضحك.

«واضح أنه لن يعجبه هذا الخليط! كيف فكرتِ أصلًا أن أي حيوان سيأكله» قال خليفة باستخفاف.

تقدمت مليحة إليها ولعقت الجزر من كفها الممدودة. نظرت إليه هِنْد بانتصار ثم انفجرا ضاحكين.

* * *

حين انتهيا من إطعام الجياد، وأشرقت الشمس من بين الجبال في الأفق.

«ما به جفُّول؟» سأل خليفة.

«لا أعلم؟ لكنه متعلق جداً بأمه ويرفض تناول الطعام».

«هذا ليس جيداً، أليس كذلك؟» سألها خليفة وبعض من القلق في نبرته.

«ماذا تفعلين هنا؟».

جفلا من صوت العم ذياب. لم يعرفا أنه قد وصل. ثم التفت إلى خليفة.

«ألا تعرف كيف تطعم الجياد وحدك؟ هل يجب أن تسحب البنت معك كي تعلمك؟».

«أبي أنا أتيت وحدي».

«ولا كلمة! اذهبي إلى البيت حالاً ودعي عمل الرجال لهم».

ألقت وعاء الطعام الفارغ بقوة على الأرض. مشت إلى دراجتها بغضب وانطلقت باتجاه البيت. تضايق خليفة ممّا حدث، وكم أراد أن يقول لعمه بأنه أبغض شخص عرفه في حياته.

* * *

منذ ذلك اليوم لم يسمح العم ذياب لابنته هِنْد بالذهاب إلى الإسطبل إلا إذا كانت معه. افتقد رفقتها ومضايقاتها له لأنه على الأقل لم يكن يشعر حينها بالوحدة. الأوقات التي كان باستطاعته الجلوس مع العائلة هي أثناء الوجبات، حتى إنه لا يأخذ راحته في تسامر الحديث مع أفراد الأسرة لأنهم هادئون كثيراً ما عدا خديجة.

كان يسعد حين يأتي بعض الشباب للتدرب على الخيول أو تمرينها فيقضي أوقاته في مراقبة الخيول وهي تخب وتعدو برفق في حلبة التمرينات. الحلبة مسوّرة بالطوب وكان عالياً قليلًا حتى لا تقفز الخيول من فوقه.

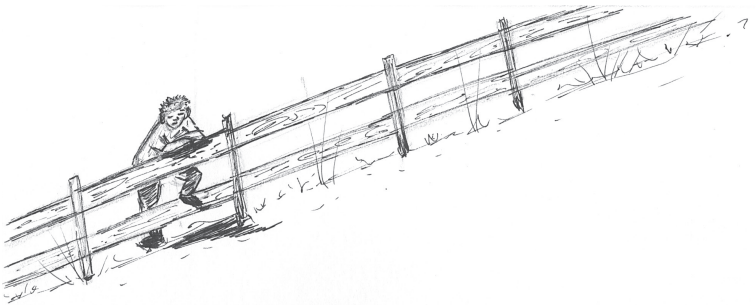

يسرح خليفة وهو يرى الأم وولدها يهرولان بخفة ذهاباً وإياباً في الحلبة. كان الصغير يلتصق بها وكأنه مغناطيس؛ حين تعدو يعدو معها ويقف حين تقف. إذا التفتت إلى اليمين يلتف معها وكأنهما جسد واحد. يتعجب خليفة من هذا المنظر، وحين يتحمس جفُّول ويركض بعيداً قليلاً عن أمه، تصدر هي صوتاً فيهرع إليها ويلازمها.

حاول خليفة تقليد الصوت، هو كالزفرة لكن بضم الشفتين فيخرج صوت تلاطم الشفتين. وحين كرر الصوت بعدها في فترة العصر وهو يلعب مع خديجة، كان يؤدي الصوت أمامها وهما يلعبان بخيولها الدُّمى تتلوى من الضحك على الرمل في الساحة الخلفية للمنزل.

«افعلها ثانية! مرة ثانية!» هتفت خديجة.

«آخر مرة، لأن لدي عمل».

قفزت فوق الألعاب وتعلقت برقبته وصرخت:

«سأذهب معك».

حملها خليفة وتقدم باتجاه البيت كي يرجعها إلى الدّاخل ولكنها ظلت تصرخ.

ظهرت سلامة فجأة من الباب الخلفي الذي يؤدي إلى الباحة وقالت بصوت جاف.

«هيا! خديجة حان وقت قيلولتك».

أخذتها عنه بعنف وصفقت الباب خلفها. وفكَّر خليفة: كم تشبه هذه البنت أباها في الطباع!

فقدان

كشـط خليفـة الرمـل لينظفـه مـن روث الخيـل، لكـن الريـاح لـم تسـاعده. كانـت الرمـال تتطايـر فـي كل مـكان؛ فـي عينيـه فـي فمـه وفـي أنفـه. كاد يختنـق وركـض خارجـاً مـن الإسـطبل. مـن أيـن يأتـي الهـواء؟ وقـع علـى الأرض الرملـي ولـم تتضـح الرؤيـة بسـبب الرمـل الـذي يـدور حولـه وكأنـه فـي دوامـة. وجـد نفسـه فـي صحـراء قاحلـة! كيـف وصـل إلـى هنـا؟ إنـه يعيـش فـي منطقـة جبليـة صحراويـة وليـس فـي الصحـراء القاحلـة. اختفـت الريـاح فجـأة واشـتد الحـر لدرجـة شـديدة أحـس بعدهـا بالاختنـاق. رفـع نظـره إلـى الأعلـى يبحـث عـن منقـذ فـرأى مـن بعيـد الغيمـة السـريعة التـي دائمـاً تـزوره فـي أحلامـه. وقـف علـى قدميـه وركـض خلفهـا. لكنهـا سـريعة جـداً؛ ركـض وركـض خلفهـا ولكنهـا ابتعـدت عنـه، وقـع علـى الرمـل مـن شـدة الإعيـاء والحـر والعطـش.

فتح خليفة عينيه؛ إنه في غرفته، الحمد لله، وليس في الصحراء. كان حلماً. حاول تحريك أطرافه ولكنه شعر وكأن جسمه ثقيل كالحديد.

«لا تتحرك يا ولدي».

تفاجأ حين سمع صوت زوجة عمه فوجدها تجلس بالقرب من سريره. حاول أن يتكلم لكن لم يخرج أي صوت وكأن شوكاً في حلقه. ماذا يحصل؟

«أنت محموم ومصاب بالإنفلونزا، وعليك أن ترتاح. هل تشعر بالعطش؟» سألته بعطف.

أومأ برأسه مؤكدًا. ساعدته لرشف بعض الماء، فتعب من تلك الحركة البسيطة، ثم أخبرته بأنه لن يذهب إلى المدرسة ولن يعمل في الإسطبل حتى يسترد عافيته. استسلم للنعاس حين خرجت ونام في سبات عميق.

* * *

لم يسترجع خليفة عافيته إلا بعد ثلاثة أيام، مع ذلك لم ترضَ زوجة عمه أن يواصل عمله في الإسطبل إلى أن يشفى تماماً ويصبحَ جسده أقوى. كان أطْولَ أسبوع في حياته؛ لأول مرة يفتقد الذهاب إلى الإسطبل، واشتاق لرؤية «مليحة» وجفُّول. لم يكن يخبره عمه عن أي شيء يحدث هناك،

خاصـة أن لديـه أعمـالاً كثيـرة فـي المدينـة، وكان يعتمـد علـى أحـد العمَّـال فـي تنظيـف الإسـطبل وإطعـام الجيـاد.

فرصـةُ ملازمـة المنـزل أتاحـت لـه أن يركـز أكثـر علـى المـواد التي يجـد صعوبـة فيهـا، كمـا اسـتطاع قضـاء وقـت أكثـر بالتحدث مـع هِنْـد التـي تجلـب لـه أخبـاراً عـن الجيـاد حيـن تذهـب مـع أبيهـا فـي بعـض الأحيـان.

ذات مـرة كان الجميـع، عـدا العـم الـذي تأخـر علـى غيـر عادتـه فـي الإسـطبل، يجلسـون فـي غرفـة المعيشـة بعـد أن فرغـوا مـن تنـاول العشـاء. كانـت هِنْـد وسـلامة تكمـلان فروضهمـا المدرسـية، بينمـا كان هـو يشـاهد برنامجـاً كرتونيـاً علـى التلفـاز مـع خديجـة.

«أفـف! لا أسـتطيع فهـم هـذه الفقـرة!» هتفـت سـلامة وهـي ترمـي كتابهـا المدرسـي. ولاحـظ خليفـة مـن غـلاف الكتـاب أنـه واجـب اللغـة الإنجليزيـة. وأكملـت سـلامة وهـي متأففـة.

«لـمَ علينـا دراسـة هـذه اللغـة الجافـة! أمـي أنـا حقـاً بحاجـة إلـى دروس خصوصيـة فيهـا، إنهـا صعبـة جـداً!».

«يـا بنيتـي، لا يوجـد معلـم خصوصـي مسـتعد أن يأتـي إلـى هنـا؛ نحـن فـي منطقـة نائيـة!».

«لكن لا أفهم المادة. لا أفهمها!» هتفت وهي على وشك البكاء.

«هـل يمكننـي أن أسـاعدك؟» سـأل خليفـة وهـو يتقـدم إلـى الطاولـة. أمسـك الكتـاب وحيـن حـاول فتحـه، سـحبت سـلامة كتابهـا مـن يـده. وقالـت:

«وماذا تعرف أنت؟ لا أريد مساعدتك!».

«هل نسيتِ أنه كان يدرس في مدرسة خاصة؟» ردت هِنْد.

«لا تتدخلي أنتِ!» صرخت سلامة في وجهها.

«كفـى يـا أولاد». قالـت والدتهـم برفـق، «سـلامة، هِنْـد علـى حـق. ربمـا يسـتطيع خليفـة مسـاعدتك».

«غيـرت رأيـي لا أريـد مسـاعدة أي أحـد» صرخـت سـلامة وخرجـت مـن الغرفـة.

ثـم دخـل عمـه فجـأة إلـى البيـت، والإعيـاء يبـدو عليـه، ووجّـه الـكلام إلـى زوجتـه.

«أم سلامة! يجب أن تأتي معي!».

وقفت هِنْد فجأة وهتفت:

«لماذا؟ مَن مرِض؟ جفُّول».

زادت خفقـات قلـب خليفـة. ووقـف هـو أيضـاً والقلـق يبـدو عليـه. فإن احتـاج العـم زوجتـه البيطريـة فهـذا يعنـي أن المشـكلة كبيـرة.

«إنها أمه. أعتقد أنها مصابة بالكوليك».

أصـرّ خليفـة وهِنْـد علـى الذهـاب مـع العـم وزوجتـه إلـى الإسـطبل. أثنـاء الطريـق، شـرحت هِنْـد لـه بـأن «الكوليـك» هـو مغـص يصيـب الخيـول نتيجـة أمـراض فـي الجهـاز الهضمـي فيسـبب آلامـاً شـديدة فـي المعـدة. ولـدى «مليحـة» تاريـخ فـي المغـص فيصيبهـا علـى الأقـل مـرة واحـدة كل سـنة.

«لكن لماذا يحدث هذا؟» سأل خليفة.

«هنـاك عـدة أسـباب، ولا يمكننـا التشـخيص جيـدًا». قـال العـم وكأنـه لا يريـد التحـدث عـن الموضـوع، لكـن تابعـت زوجـة عمه:

«أحـد أهـمّ الأسـباب هـو التهـام كميـات كبيـرة مـن الحبـوب، أو انسـداد الأمعـاء أو تنـاول كميـات كبيـرة مـن الرمـال، والسـبب الآخـر أن الأفـراس فـي المراحـل الأخيـرة مـن الحمـل والرضاعـة تكـون معرضـة إلـى مشـاكل فـي الأمعـاء الغليظـة، وبالتالـي حـدوث المغـص».

ظـل خليفـة صامتـاً يحـاول اسـتيعاب كل هـذه المعلومـات. لـم يتوقـع أن الخيـول تمـرض كالإنسـان، اعتقـد بـأن أمراضهـا إصابـات خارجيـة فـي معظـم الأوقـات، ثـم تذكـر فجـأة حلمـه والعاصفـة الرمليـة.

«هـل كانـت هنـاك عاصفـة رمليـة حيـن كنـت مريضـاً؟ سـأل خليفـة؟

«نعم، كيف عرفت؟» سألت هِنْد.

«حلمت بذلك» تمتم.

ضحك فجأة عمه بسخرية وهتف:

«والآن تفسر الأحلام؟ وماذا أيضًا أخبرك حلمك؟».

ظل خليفة صامتاً وتمنى أنه لم يفتح فمه. كان مرتاحاً لمدة أسبوع من غطرسة عمه وكلماته الجارحة.

«دع الولد وشأنه يا أبا سلامة». قالت له زوجته بهدوء.

* * *

كان ثمة عاملان على استعداد للمساعدة حين وصلوا الإسطبل. أخبرا نورة أن نبضات قلب مليحة تزداد، وسرعة تنفسها أيضاً. وحين راحت تجهز المُسَكِّن «لمليحة»، ذهبت هِنْد وخليفة إلى مقصورة منعزلة عن باقي الجياد حيث كانت علامات الاضطراب والانفعال بادية على الفرس المسكينة؛ كانت تضرب في الأرض بحافرها وتلتفت إلى خاصرتها محاولة قضم منطقة الألم. وحين صعب عليها ذلك، نزلت بحذر إلى الأرض وتمرّغت في الرمل من شدة الألم.

«ابتعدا عنها!» صرخ العم وهو يدخل مع العمال وزوجته إلى الداخل عند مليحة لإعطائها المسكِّنات وتهدئتها.

«تعـال معـي». همسـت هِنْـد فـي أذن خليفـة وتسـللا بعيـداً وذهبـا إلـى الخيـول الأخـرى.

«هل ستكون بخير؟» سأل خليفة.

«نعم لا تقلق؛ فأمي تعرف ماذا تفعل». أجابته هِنْد بثقة.

وجـدا جفُّـول يجـول فـي مقصورتـه وحيـداً ويصهـل منادياً أمـه. كانـت عينـاه واسـعتين مـن الخـوف وأذنـاه تلتفتـان إلـى الأمـام والخلـف.

«آآآآه جفـول لا تقلـق» قالـت لـه هِنْـد بصوتهـا الحانـي. فتحـت البـاب لتدخـل إليـه.

«مـاذا تفعليـن؟ أجننـت؟ يبـدو متضايقـاً جـداً، قـد يهجـم عليـك فـي أي لحظـة!».

«مـاذا بـك؟ سـأحاول تهدئتـه». لكنهـا لـم تلحـق إنهـاء جملتهـا، حتـى حـاول جفُّـول ركلهـا بقدميـه الأماميتيـن، لحسـن حظهـا سـحبها خليفـة فـي آخـر لحظـة.

«سيغضب عمّي منّي كثيراً إن تركتك بالداخل معه».

سحبت ذراعها من قبضته وابتعدت غاضبة.

«إلى أين أنت ذاهبة؟» صرخ خلفها.

«سأحضر له طعامًا. ابقَ معه» أجابت دون أن تلتفت إليه.

رجع خليفة ليلقي نظرة على جفُّول؛ كان شديد الاضطراب والخوف، تمنى لو باستطاعته فعل شيء له. رجعت هِنْد وهي تحمل طعاماً لجفُّول. دخلت بحذر وخليفة على أعصابه، يراقبها وهو على أطراف أصابعه يتمنى أن تسكب الطعام بسرعة وتخرج قبل أن يجفل الصغير ثانية.

خرجت ووقفت بالقرب من خليفة يراقبانه ويتمنيان أن يتقدم للطعام ويتناول بعضاً منه. لكنه أدار ظهره إليهما و للطعا م .

«إنه عنيد؛ لا يريد إلا حليب أمه، ماذا سنفعل؟» قالت هِنْد باستياء.

* * *

لا يعرف خليفة إن كانت دقائق أم ساعات مرت منذ وصولهم إلى الإسطبل لمعالجة

مليحة. أياً كانت بدت وكأنها دهر. وأخيراً نادى عليهما العم وأمرهما أن يركبا السيارة. لم يرضَ جفُّول أن يقترب من الطعام أبداً رغم محاولات هِنْد لاستدراجه. أحس خليفة بإحباط وتمنّى أن يسمع أخباراً جيدة عن مليحة حتى يُقبل الصغير على الأكل أو الرضاعة من أمه.

«هل هي بخير الآن خالة نورة» سأل خليفة بلهفة حين صعدا السيارة في المقعد الخلفي.

«كفاك أسئلة! ألا ترى أنها متعبة؟» صرخ عمه وهو يضغط بقدمه بقوة على دوّاسة البنزين.

انكمش خليفة في المقعد الخلفي إثر انطلاق السيارة على الطريق الوعر رجوعاً للمنزل، فقد شارفت الساعة إلى الثانية بعد منتصف الليل. نظرت إليه هِنْد معاتبة ووضعت إصبعها على فمها محذرة له ألّا يتكلم. ولكنه لا يستطيع الانتظار ليعرف ما جرى لـ «مليحة» فقطب حاجبيه لها.

«فعلنا ما بوسعنا يا خليفة» قالت له نورة بصوت مرهق. ثم أكملت وزوجها يهز رأسه بغيظ. «مليحة بحاجة إلى جراحة ولا يوجد مستشفى خيول في المنطقة. فقط دعواتنا لها وبإذن الله تكون أحسن في الغد إلى أن ننقلها إلى المدينة».

تنهد خليفة وقد شعر بتحسن قليلاً لمعرفة أن «مليحة» ستؤخذ إلى مستشفى الخيول.

أسرع خليفة على دوّاسة دراجته الهوائية وهو راجع من المدرسة. تأخر صباحاً عن المدرسة بسبب عودتهم في وقت متأخر الليلة الماضية واستغرق وقتاً طويلاً إلى أن نام. لم يكن أحد موجوداً في البيت حين ذهب إلى المطبخ ليفطر صباح اليوم الثاني. وجد ورقة لاصقة بجانب فطوره من زوجة عمه تخبره بأنها في الإسطبل للاهتمام «بمليحة» وألّا يتأخر في الذهاب إلى المدرسة. لولا أن عليه تسميع قصيدة ورصد الدرجات من قبل معلمه لتغيب اليوم عن المدرسة وذهب لرؤية «مليحة»، لكنه لم يرغب أن يسمع توبيخاً من عمه، فقد كان متوتراً أكثر مما يجب.

لم يتوقف عند البيت بل أكمل طريقه إلى الإسطبل. كان الجو حاراً جداً والعرق يتصبب من وجهه ورأسه وظهره. شاهد دراجة هِنْد ملقاة على الرمل. لقد سبقته، يبدو أنها ذهبت مباشرة إلى الإسطبل بعدما رجعت من المدرسة. توقف عند دراجتها وركض باتجاه مكان الخيول فوجد هِنْد على الأرض ورأسها بين ركبتيها، كان الصمت قاتلًا ولم يسمع إلا شهقات بكائها. توقف مكانه؛ فلم يكن يريد الاقتراب وسماع ما ستقوله؛ لا داعي أن تقول له؛ فقد عرف. رفعت رأسها حين سمعت خطواته، كان وجهها ملطخاً بالدموع ومحمرّاً من الشمس.

«م... م... مليحة» قالت وهي تشهق من شدة البكاء.

هـز خليفـة رأسـه، فلـم يـرد سـماع الكلمـات. فـي تلـك اللحظـة رأى زوجـة عمـه تخـرج مـن مقصـورة الخيـول وهـي تمسـح العـرق مـن جبينهـا. التفتـت إلـى خليفـة حيـن شـاهدته.

«خليفة، أنا آسفة، لم نستطع إنقاذ...».

«لا!» صـرخ خليفـة وهـو يتراجـع إلـى الخلـف فسـقط علـى الرمـل.

«خليفة ولدي...».

لكـن لـم ينتظـر خليفـة. قـام علـى رجليـه بحركـة عشـوائية ثـم ركـض بعيـداً عـن الإسـطبل باتجـاه معاكـس للبيـت. ظـل يركـض ويركـض ووجهـه معلـق فـي السـماء يبحـث عـن الغيمـة التـي تظهـر لـه فـي كل مـرة. ركـض وقلبـه يتفطـر ثانيـة لمـوت والديـه ومـوت «مليحـة». لمـاذا كل مـن حولـه يفارقـون الحيـاة؟ هـل هـو نذيـر شـؤم؟ لـم يحتمـل قـط. لا يريـد أن يحتمـل هـذا الألـم الـذي يعصـر قلبـه.

ركـض إلـى أن وصـل إلـى صخـور جبليـة مرتفعـة فصعـد عليهـا. ظـل يصعـد أعلـى وأعلـى حتـى وصـل إلـى القمـة وهـو يلهـث. ثـم التفـت إلـى المنظـر أمامـه. فشـاهد المزرعـة أمامـه مـن بعيـد والإسـطبل ومـزارع الجيـران تبـدو وكأنهـا ألعـاب مكعبـات. ابتعـد كثيـراً عنهـم. لـن يـراه أحـد يبكـي، ولـن يسـمعه أحـد؛ أخـذ نفسـاً عميقـاً، وبـدلاً مـن البـكاء صـرخ بأعلـى صوتـه، فحملـت الريـاح صـدى صراخـه بعيـداً إلـى السـماء.

جرح لا يبرى

رجع خليفة بعدها إلى الإسطبل عند الغروب. مشى بهدوء وعزم باتجاه دراجته. كانت هِنْد تجلس في انتظاره. أخبرته بأنهم أخذوا مليحة وتم دفنها في منطقة قريبة من الإسطبل، لكنه لم يعِرْها اهتمام؛ لا يريد أن يعرف عن أي دفن، فقد حضر دفنَ والديه وكان هذا كافياً. صعد على دراجته واتجه إلى البيت، حين وصل دخل غرفته ولم يخرج حتى اليوم الثاني.

تلت الأيام بعدها مثل الحلم، لم يتكلم خليفة إلا مع خديجة؛ فقد كان عزاؤه الصمت والبقاء وحيداً. لم يذهب حتى إلى الإسطبل، والغريب أن عمه لم يضغط عليه، طبعاً بتوجيهات من زوجته. الكل تركه وحده لفترة حتى يتغلب على الفجوة التي اتسعت أكثر في فؤاده. حاولت هِنْد مرة أن تخبره عن الصغير جفُّول، لكنه لم يبالي. لا يريد أن يتعلق به ولا بأي شيء قد يفقده من جديد.

في اليوم الرابع منذ نفوق الفرس، بينما كان يحمل صندوق الخضار والفواكه إلى المطبخ، توقف عند الباب وسمع نورة تحدث عمه عن جفُّول وكان صوتها يعتليه القلق.

«سنفقد جفُّول أيضاً. لا يرغب في الحليب الصناعي ولا حتى بالطعام المخصص له».

«هذا طبيعي جداً، فالمُهْر لا يستطيع أن يقاوم من دون أمه. الظاهر أن جفُّول لا يملك رباطة جأش خليفة. أراه قد اعتاد على فكرة موت والديه».

«اششش، لا أريده أن يسمعك، ولا داعي أن تكون قاسياً معه».

«عليه أن يباشر العمل في الإسطبل كي يشغل نفسه وإلا...».

لم يبقَ خليفة ليستمع إلى باقي الكلام؛ أنزل صندوق الخضار بالقرب من باب المطبخ وخرج بهدوء بعد أن أخذ معه حزمة جزر. اتجه مباشرة إلى دراجته الهوائية؛ صعد عليها واتجه لأول مرة منذ رحيل مليحة باتجاه الإسطبل. ظل كلام عمه يتردد في فكره.

«المُهْر لا يستطيع أن يقاوم من دون أمه».

«لماذا؟ عليك أن تقاوم يا جفُّول».

«الظاهر أن جفُّول لا يملك رباطة جأش خليفة».

«بلى، إنه مثلي! سيقاوم بالتأكيد! وإن لم يستطع سأساعده، سترى يا عمي».

* * *

حين وصل الإسطبل، ركض خليفة إلى مقصورة الخيول. فوجد جفُّول على الأرض هزيلاً وحيداً والحزنُ لفراق أمه بادٍ عليه.

«جفُّول..» ناداه بصوت هادئ حتى لا يخيفه.

«أنا هنا، آسف لأنني لم أعزِّك، يجب أن تتغلب على حزنك، يجب أن تصبح أقوى، تعال، هيا كُلْ». قال له خليفة وهو يمد له يده بجزرة لكن من خلف الباب.

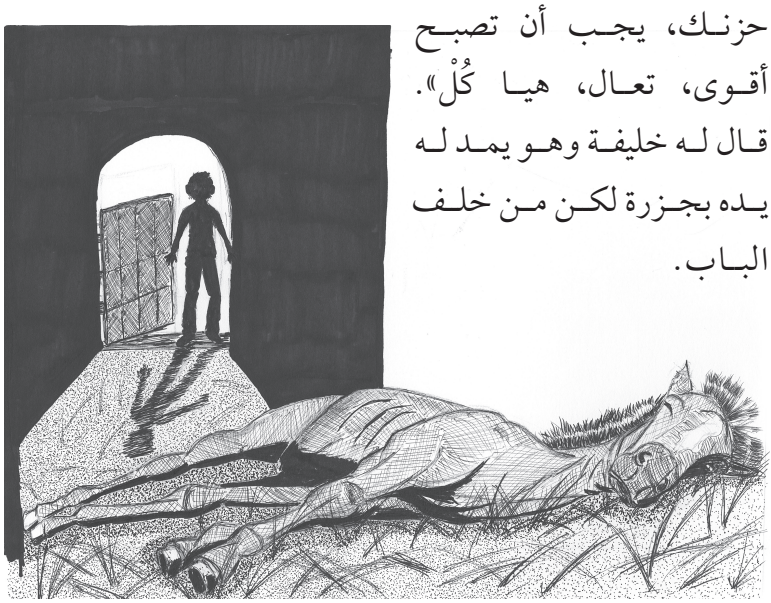

أنـزل جفُّـول رأسـه ولـم يلتفـت إليـه. أراد خليفـة أن يدخـل إليـه ويحـاول إعطـاءه الجـزر. لكـن خـاف أن يركلـه. يبـدو علـى جفُّـول الإعيـاء وعـدم القـدرة علـى الحركـة أيضـاً. دخـل بحـذر ووقـف فتـرة مـن دون حـراك. كان جفُّـول يحـرك أذنيـه بحـذر؛ فهـو يعلـم بوجـود خليفـة. ظـل مـا يقـارب عشـر دقائـق واقفـاً مـن دون حـراك. ثـم فعـل شـيئاً دون تفكيـر. قلّـد الصـوت الـذي كانـت تصـدره أمـه مليحـة بضـم شـفتيه وإخـراج صـوت تلاطـم شـفتيه.

رفـع جفُّـول رأسـه فجـأة بوهـن. كـرر خليفـة الصـوت. أصـدر جفُّـول نحيمـاً ضعيفـاً فشـعر خليفـة وكأنـه أذن لـه أن يتقـدم. نـزل خليفـة القرفصـاء واقتـرب منـه. لـم يتحـرك جفُّـول بـل ظـل قفصـه الصـدري يرتفـع ويهبـط بطريقـة لـم تكـن مطمئنـة فـي عينـيّ خليفـة. قـرّب خليفـة جـزرة باتجـاه فـم جفـول لكنـه لـم يهتـم لهـا. فكّـر خليفـة مـاذا سـيفعل؟ آه ربمـا لا يريـد أن يـأكل. المـاء هـو الحـل. خـرج مـن الإسـطبل ورجـع مـع سـطل مـن المـاء. بلـل خرقـة بالمـاء وقطّـر عنـد فـم جفُّـول. لـم يمانـع الصغيـر فكـرر خليفـة تقطيـر المـاء مـع حفاضـه علـى مسـافة بعيـدة عنـه. مـازال خائفـاً أن يقفـز فجـأة ويطرحـه. حـاول أيضـاً وضـع المـاء علـى وجهـه ورقبتـه لتبريـده والتخفيـف عنـه شـدة حـرارة الجـو مـع أن الوقـت عصـراً الآن. ظـل علـى هـذا المنـوال إلـى أن غابـت الشـمس.

جـاء عمـه لإطعـام الخيـول. أطـلّ برأسـه داخـل مقصـورة جفُّـول فتفاجـأ بوجـود خليفـة جالسـاً مسـتنداً علـى الجـدار يحـرس جفُّـول.

«أنـت هنـا؟ اذهـب إلـى البيـت. فـلا فائـدة مـن جلوسـك هكـذا!».

ظـل خليفـة صامتـاً ولـم يـرد عليـه. اسـتمر العـم بأعمالـه المعتـادة وحيـن انتهـى بعـد سـاعة تقريبـاً رجـع إلـى البيـت دون أن يلقـي نظـرة علـى خليفـة. لـم يحـزن خليفـة فهـو لا يتوقـع شـيئاً مـن عمـه. أكل حبـة مـن الجـزر الـذي أحضـره لجفُّـول حيـن شـعر بالجـوع.

التفـت إلـى الصغيـر ولاحـظ بـأن تنفسـه مـازال متسـارعاً. اقتـرب قليـلاً علـى قرافصـه ثانيـة وحـاول وضـع كفـه علـى رقبـة جفُّـول لكنـه جفـل. أخـذ خليفـة يصـدر صـوت «مليحـة» لتهدئتـه. وحـاول وضـع يـده عليـه ثانيـة فلـم يعتـرض الصغيـر. زفـر بقـوة خليفـة ولـم يلاحـظ بأنـه كان يكتـم أنفاسـه. أحـب ملمـس جلـد عنـق جفُّـول مـع أنـه كان هزيـلاً. مـرر يـده ببـطء إلـى أن وصـل إلـى عُرْفِـه. كان خشـناً وقصيـراً ليـس منسـدلاً كشـعر أمـه مليحـة.

اقتـرب خليفـة أكثـر واسـتلقى علـى جنبـه بالقـرب مـن الصغيـر وفكّـر خليفـة أن جفُّـول لا حـول لـه ولا قـوة ولـن يركلـه أو يدفعه.

استمر في ملامسة شعره وظل يدعو أن يصبح بخير. ما هي إلا لحظات حتى غط في نوم عميق.

فتح خليفة عينيه فجأة منتبهاً لهواء يلفح وجهه. كان جفُّول يقرّب وجهه من خليفة وكأنه يصبح عليه. ضحك خليفة وجلس بحذر. لاحظ بطانية كانت تغطيه. من أين جاءت؟ غريب جداً فكّر خليفة. نظر إلى جفُّول ولاحظ أنه مازال مستلق على أرضية الإسطبل لكن هذه المرة كان رافعاً رأسه ويقرّب خطمه من يد خليفة. ربما يريد المزيد من الماء. خرج خليفة ليضع الماء في السطل. وحين رجع تفاجأ برؤية جفُّول قد وقف بغير اتزان على أقدامه الأربعة النحيفة مسلطاً نظره على خليفة.

شعر خليفة بالأمل فقرر أن يقلد صوت «مليحة» ثانية، فتقدم المُهْر خطوة باتجاهه. خفق قلب خليفة ومدّ يده التي كانت تحمل الجزر باتجاهه وكرر الصوت. مشى جفُّول إلى أن وصل إلى يد خليفة. تسارعت ضربات قلب خليفة وأحسّ بأنها ستخرج من حلقه. لم يقترب هكذا لأي خيل ولم يعرف إن كان عليه أن يهرب أم يحضن جفُّول، لكن المُهْر فعل شيئاً غريباً؛ قرّب رأسه من يد خليفة ودفع الجزر. اقترب منه خليفة وقرّب الجزر من فم جفُّول فحمحم ودفع يد خليفة من جديد. ثم تذكر خليفة ماذا كانت تفعل هِنْد بالجزر. أخذ

قضمة كبيرة من الجزر ثم مضغها لفترة ووضعها في كفه، مد كفه باتجاه فم جفُّول وهو يقلد صوت أمه ثانية.

فتح جفُّول فمه والتهم خليط الجزر من كف خليفة. ضحك خليفة وتفاجأ حين سمع ضحكاً لشخص آخر معه. كانت هِنْد تقف مع والدتها تراقبانه طوال تلك الفترة.

جفُّول يأكل أخيراً! أمي سيعيش! هتفت هِنْد بفرح وهي تحضن أمها التي كانت تنظر إليه بحنان.

في الأيام التي تلت، استعاد جفُّول عافيته حتى إنه كان يرضع الحليب من عبوة خاصة، ولا يقبلها إلا من يد خليفة. وكأنه يعتقد أن خليفة أمه. حاول خليفة ما بوسعه لتعويض المُهر الحنان الذي فقده بالقيام بدور الأم له، بإطعامه وحتى المبيت معه. ومع كل وقت يزداد خليفة تعلقاً بالمُهْر، ومن دون أن يعلم بدأت الفجوة التي في قلبه تصغر، وامتلأت بحبه ومسؤوليته الجديدة باتجاه المُهْر اليتيم. فكلاهما يتيمان وبحاجة إلى بعضهما.

خيل كالطوفان

«عليك أن تضبط خيلك يا خليفة».

قال الجار أبو خالد بحدّة وهو واقف يشير إلى الفوضى في محصول القرع الذي خلفها جفُّول، كانت آثار حوافره تدل على دخوله مزرعة جارهم، لكن لم يستطع خليفة من مكان وقوفه أن يرى أين هو.

«أعتذر بشدة، لا أعرف كيف فلت من الإسطبل». قال خليفة وهو يشعر بالإحراج، ثم أكمل: «أين هو؟».

أشار أبو خالد باتجاه نخيله. في كل مرة يزداد جفُّول شغباً. لقد كبر الآن وأكمل سنة من عمره وأصبح صعب المراس. يحب الركض كثيراً ودائماً يهرب إلى المزرعة المجاورة لمشاكسة الدجاج وماشية الجار أبي خالد، الذي كانت مزرعته بالقرب من الإسطبل.

وصل إليه خليفة ثم ناداه بالطريقة التي اعتاد أن يناديه بها، بنفث الهواء من فمه وإصدار صوت تلاطم الشفاه. مباشرة ابتعد جفُّول عن شجرة اللوز وتقدم من خليفة ومال برأسه عند رأس خليفة. حاول قضم أذنه لمداعبته لكنه نهره.

«كفى! خذ». ثم أدخل يده داخل جيبه لإخراج بعض التمر وأعطاه لجفُّول الذي التهم حفنة مباشرة. في الآونة الأخيرة بدأ جفُّول يتمتع بطعم التمر الغني بالسكر.

أصبح جسمه قريباً من الحصان البالغ، وتغير لونه من البني إلى البني المائل إلى الرمادي. أخبرته هِنْد أن لونه سيتغير كاملاً وسيصبح مثل أمه حين يبلغ ويسمى الخيل الأزرق. خليفة نفسه أصبح أطول قليلاً، ولكنه لم يلاحظ ذلك إلا حين استهزأت بطوله سلامة مرة ونادته بالزرافة.

ربَّت خليفة على رقبة جفُّول ومشى معه إلى أن وصلا إلى الجار أبو خالد، الذي كان لا يزال واقفاً عند بوابة مزرعته وعلامات الضيق بادية على وجهه.

«أرجو ألّا يتكرر ذلك ثانية».

لكن تكرر ذلك ثانية وثالثة ورابعة واستمرت الشكاوى من قبل الجيران. كان أشدهم شراسة وغضباً من مشاغبات جفُّول هي الجارة موزانة ودجاجاتها.

ذات مـرة، وبينمـا كان خليفـة يضـع بعـض التمـر لخلطـه مـع طعـام الجيـاد، شـعر بقرصـة مؤلمـة فـي أذنـه ثـم نقـرات قاتلـة متتاليـة فـي وسـط رأسـه مـن الأعلـى، فقفـز مـن مكانـه ويـداه تلوحـان لإبعـاد الوحـش المكسـو بالريـش مـن أعلـى رأسـه. إنهـا دجاجـة الجـارة مـوزة. ظـل خليفـة يفـرك رأسـه مـن الألـم وهـو ينظـر إلـى الدجاجـة التـي رجعـت إلـى سـيدتها تتبختـر مزهـوة بانتصارهـا. تفاجـأ حيـن رأى الجـارة مـوزة تنظـر إليـه والشـرر

يتطاير من عينيها من خلف برقعها[1] الذي كان يلمع كمنقار صقر وهي تربت على ريش دجاجتها.

«إلى متى يا خليفة؟ إلى متى؟ اخس... اخس... اخس... ألا تعرف كيف تضبط خيلك؟».

«ل... ل... لكنه ليس حصاني».

«صهٍ! ولا تنبس بكلمة؛ دجاجاتي ترفض أن تبيض بسبب هذا الطوفان الذي تطلقه كل مرة إلى مزرعتي». صرخت في وجهه وهي ترفع عصاً تتوكأ عليها. بقبقت الدجاجة مقلدة نبرة صوت سيدتها.

«والله أنا لم أطلقه، هو يهرب».

لوحت بالعصا بسرعة البرق دون أن ينتبه خليفة فلسعته بجانب فخذه. فقفز إلى الوراء يفرك مكان الضربة وصاح من لسعة الألم.

«قلت لك صه! الويل لك أنت وعمك إن لم تضبطا هذا الطوفان». ثم أعطته ظهرها وصرخت «راجو! راجو! أحضر الكرسي».

(1) البرقع الإماراتي: قناع يغطي منطقة العين، مصنوع من قماش خاص يلمع، هو زي تراثي ترتديه السيدات وغالباً كبيرات السن.

رأى خادمها راجو يهرع إليها وهو يدفع كرسي العجلات على الطريق الحصوي. نال راجو هو الآخر لسعة من عصاها أيضاً لكن المسكين لم ينطق بشيء، وأومأ برأسه وهي توبخه.

«ألم أقل لك أن تتبعني؟».

استدارت وأعطت ظهرها للكرسي ثم رجعت إلى الخلف ببطء شديد. ظن خليفة أنها لن تصل إلى المقعد أبداً. وأخيراً حين جلست عليه، وضعت عصاها في حضنها، ثم أمسكت بقدمها اليمنى لترفعها على مسند الأقدام في الكرسي، وكررت الشيء نفسه لقدمها اليسرى، بعدها أمسكت بعصاها وأشارت إلى المخرج دون أن تتكلم فدفعها المسكين راجو باتجاه سيارتها الرباعية العملاقة السوداء التي جاءا فيها.

استغرب خليفة من معاملة العجوز الأرملة له مع أن دقات قلبه لا تزال تنبض بشدة. إنها حقاً مخيفة!

«فضحنا هذا الخيل!» تذمر العمّ ذياب أثناء العشاء. «لا تعجبني تصرفاته. إنه يسبب لنا المشاكل مع الجيران! مرة مع دجاج جارتنا موزة زوجة المرحوم أبو سالم، ومرة يعبث بمحصول أبي خالد!».

«سيهدأ، أعطه بعض الوقت!» أجابت زوجته.

«لا، لا؛ الأمور لا تبشر بخير. نحس منذ ولادته». أجاب

العـم بيـن لقمـات الأرز التـي يقحمهـا فـي فمـه. تضايـق خليفـة مـن كلامـه، ولكنـه لـم يقـل شـيئاً. انهـال علـى قطعـة الدجـاج المشـوي فـي صحنـه بالشـوكة والسـكين وأصـدر صوتـاً عاليـاً مـن جـراء ذلـك، مـا جعـل العـم يلتفـت إليـه ويقـول:

«ألـم تنسَ عاداتـك بعـد؟ لـم لا تسـتخدم أصابعـك فـي الأكل بـدلاً مـن إصـدار الضوضـاء وأنـت تـأكل؟».

وضـع خليفـة الشـوكة والسـكين علـى السـفرة بهـدوء وقـام دون أن ينتهـي مـن طعامـه.

«وتهـدر الطعـام أيضـاً!» صـرخ العـم. لـم يجـب خليفـة، ولكنـه خـرج إلـى الباحـة وجلـس علـى الـدرج يتأمـل النجـوم. سـمع خطـوات خفيفـة خلفـه. ابتسـم فقـد عـرف أنهـا خديجـة الحبوبـة التـي تفرحـه دائمـاً كمـا يفرحـه جفُّـول. قفـزت علـى ظهـره كعادتهـا وصرخـت:

«اركض حصاني اركض».

«نيييييههههههـاااا!» قلّـد خليفـة صهيـل الحصـان ثـم وقـف وخديجـة صاعـدة علـى ظهـره. تشـبثت جيـداً بذراعيهـا وأقدامهـا وقهقهـت ضاحكـة حيـن جـرى خليفـة كالحصـان فـي الباحـة مقلـداً الخيـل. خرجـت هِنْـد إليهـم لتأخـذ أختهـا وتحممهـا قبـل النـوم. أنزلهـا خليفـة فركضـت إلـى الداخـل فرحـة فهـي تحـب الاسـتحمام كثيـراً مـع حيواناتهـا الدُّمـى.

وقفت هِنْد لبرهة إلى أن دخلت أختها الصغرى ثم قالت:

«لا تتضايق من أبي. أنت تعرف أنه يُلقي الكلام دائماً دون أن يهمه إن كان كلامه جارحاً أم لا».

«كيف تتحملونه أنتِ و خالتي نورة؟».

«ربما تعودنا عليه».

«لماذا يكره كوني من المدينة!».

صمتت هِنْد قليلاً ثم قالت:

«أمي تقول إنه عانى كثيراً حين كان صغيراً. أنت تعلم أن أباه تزوج أم أبيك».

«ماذا تقصدين؟» قال خليفة باستغراب.

«حين توفيت جدتي -أم والدي- تزوج جدي من أم والدك. إنهما أخوان فقط من الأب».

ظل خليفة صامتاً لبرهة ليستوعب هذه المعلومات الجديدة. ثم أكملت:

«لم ترغب جدتك أن يعيش أبي معهم في المدينة. فظل أبي ينتقل من بيت لآخر عند أعمامه، ولم يكن مرغوباً فيه أبداً!».

تضايق خليفة من هذا الخبر ولم يعرف إن كان ما يشعر به الآن شفقة أم تعاطف مع عمه ذياب.

* * *

في أحد الأيام في فترة العصر، وحين جاء خليفة لإطعام الخيول، هرب المشاكس جفُّول للخارج، مبتعداً عن حلبة التمرينات ومتجهاً إلى مزرعة الجار أبي خالد بسرعة كالبرق.

«لا...لا...لا... جفُّول!».

رمى خليفة دلو الطعام على الأرض وركض خلف جفُّول. سمع خليفة صهيل الخيل من بعيد وكأنه يضحك وتابع الجري. يا له من شقي! إنه يستمتع بما يفعل ويعتقد أنها لعبة. كان عمه وقتها يجلس في «البرزة» مع ضيوف قد جاؤوا كي يروا الإسطبل ليضعوا خيلهم.

«ما هذا؟» سأل الضيف.

جفُّول تمتم العم.

«آه سمعت عنه. هل هو جواد خليفة؟».

لم يجب العم، بل تابع النظر إلى ظهر خليفة المبتعد وهو يخلف التراب وراءه راكضاً وراء المشاكس جفُّول.

* * *

تابع خليفة الجري خلف جفُّول. إنه يجري بسرعة فائقة! هل الفحل سريع هكذا في العادة؟ أم إن جفُّول باستطاعته الجري بهذه السرعة فيختفي عن الأنظار. هذه المرة اتخذ جهة معاكسة للجار أبي خالد، إلى أين ذهب ذلك المراوغ الآن؟

مرّ خليفة بالقرب من بائعي الفواكه والخضار الذين كانوا يعرضون بضائعهم على الطريق العام.

لا لا لا ليس الطريق العام. فكر خليفة في نفسه؛ فأي سيارة قد تصدمه!

شاهد صناديق الباعة مقلوبة رأساً على عقب وباقات من الفواكه والخضار مبعثرة على التراب في كل مكان من بينها الفندال[1].

لم يتوقف خليفة بل تابع سيره إلى حيث أشارت أيادي الباعة. ركض قليلاً ثم حمد الله وتنفس الصعداء حين رأى حوافر جفُّول الشقي قد انحرفت عن الطريق العام متجهة إلى مكان منخفض وشاسع.

فجأة توقف خليفة! ولم يعرف أيضحك أم يبكي من المنظر أمامه. كان جفُّول يركض خلف قطيع الماعز وقد

(١) الفندال: البطاطا الحلوة.

بعثرها في كل مكان. ولم يعر أذناً صاغية للراعي الذي كان يركض بسخط في كل مكان، لا يعرف كيف يجمّع قطيعه.

كان جفُّول يصهل ملقياً رأسه للخلف مستمتعاً بوقته مع الماعز التي كان بعضها يتسلق الأشجار من أثر الرعب الذي ألحقه بها هذا الطوفان. هكذا كان يبدو وهو يدور وتدور الماعز حوله، كما كان يركض الراعي خلفه ملوحاً بعصاه وكأنه يريد أن يبرحه ضرباً. ركض خليفة إلى الراعي لأنه خاف أن يركل جفُّول الرجل فاعترض طريقه وهدّأه.

«لحظة، لحظة؛ سأمسكه، ابتعد! لا تضربه أرجوك!».

أعطى خليفة ظهره للرجل ثم حاول أن ينادي جفُّول بالطريقة المعتادة لكنه لم يلتفت إليه. كان يدور ويدور حول شجرة تسلق عليها بعض الماعز من الخوف. تساءل خليفة إن كان دم كلاب يسري في عروق جفُّول. لماذا يتصرف كالجرو؟ كانت الماعز تستنجد بثغائها للراعي. وقف خليفة يفكر لبرهة. أدخل يده ثانية في جيبه فاكتشف أن مخزون التمر الذي يبقيه في جيبه لهذه الحالات قد فرغ. ظل يفكر ما هي الخطوة الثانية بما أنّ جفول بدأ يحاول قضم أقدام الماعز كمداعبة لها.

تقدم خليفة ببطء شديد باتجاه الشجرة. ثم تسلق غصناً من أغصانها وزحف على بطنه محاولاً الاقتراب من الماعز

المرتعب. مد خليفة يده محاولاً إمساكه لكن توازنه اختل ووقع على ظهر جفُّول!

وقف الحصان على أقدامه الخلفية من صدمة وقوع خليفة عليه وركل بأقدامه الأمامية في الهواء. عانق خليفة عنق جفُّول مخافة أن يقع. ثم انطلق جفُّول كالبرق مبتعداً عن الشجرة وخليفة على ظهره. تشبث خليفة بكل ما أوتي من قوة بشعر جفُّول، وحضنه بذراعيه وقدميه والرعب يملأ كيانه.

ظل الخيل يعدو لفترة طويلة ولم يعرف خليفة في أي اتجاه هما ذاهبان. كانت ضربات قلبه عالية جداً تشبه وقع أقدام جفُّول المنطلقة. ظلا هكذا لفترة طويلة، حتى ظن خليفة أن حصانه لن يتوقف أبداً، هدأت خطواته فجأة وتحول العدو إلى هرولة ثم مشى بخطوات بطيئة. توقف جفُّول وأدار رأسه لقضم قميص خليفة محاولاً سحبه من فوق ظهره.

رفع خليفة رأسه وهو خائف وفتح عينيه. لقد كان طوال مدة الانطلاق مغمض العينين! أدار جفُّول رأسه وقد أحكم هذه المرة قبضته على سروال خليفة الجينز وسحبه وأوقعه على الأرض. لم يتأذَّ خليفة ولكنه وقف متفاجئاً حين اكتشف أنهما في إسطبل عمه! نظر خليفة إلى جفُّول وما كان منه إلا أن رفع رأسه وصهل بصوت عال معبراً عن انتصاره.

صهوة جواد

دخل خليفة بسرعة إلى بيت عمه. وقف بجانب المرآة المعلقة بالقرب من الباب من الداخل ليحكم لف «غترته»[1] حول رأسه.

«خالة نورة!» هتف منادياً زوجة عمه التي كانت في المطبخ. عندما سمعته ناولته حقيبة الشاي والقهوة و«الفوّالة»[2].

---

(1) الغترة: شماغ ملوّن بالأحمر والأبيض ويُلَفُّ فوق الرأس كالعمامة للحماية من أشعة الشمس أو للتزين به عند الرجال والأولاد، ويعتبر زياً تراثياً لأهل منطقة الخليج.

(2) الفوالة: يطلق على الوجبات الخفيفة الشعبية في دولة الإمارات وعادة يتكون من تمر، وجبن أبيض مع السمن (جامي)، ولقيمات (معروفة بالقريصات) والبلاليط (شعيرية مقلية مع البيض والهيل والزعفران).

«ما الأمر؟ تبدو نشيطاً بطريقة غريبة جداً! كما أنك تلبس الغترة كثيراً هذه الأيام! لماذا؟» سألته وهي تلحق به للخارج. ضحك خليفة وهو يثبت الحقيبة في دراجته ثم صعد عليها.

«اعترف!» هتفت هِنْد وهي تضرب بقدمها على الرمل.

«ليس لدي شيء أخفيه يا ابنة العم!» صرخ خليفة مسرعاً وهو ينطلق إلى الإسطبلات. نعم إنه يشعر بالنشاط لأن لديه هدفاً. منذ ذلك اليوم الذي امتطى خليفة جفُّول بالصدفة، وهو يحاول في كل مرة تكرار محاولة ركوبه. لم يخبر هِنْد بذلك، لم يخبر أي أحد أنه يحاول امتطاء الحصان بعد أن يجري ويختفي عن الأنظار.

لكن جفُّول لا يعطيه فرصة فهو يوقعه أرضاً في كل مرة. لم يكن خليفة يمارس هوايته الجديدة إلا بعد أن ينتهي جفُّول من لعبته «تعال وأمسك بي». فقد لاحظ خليفة أنه كلما فرغ الجواد من الركض واللعب والاختباء في مزرعة أحد ما، يصبح أقل عنفاً ومراوغة؛ لم تثنه الخدوش التي انتشرت في جسمه عن امتطاء جواده جفول؛ فلذة الاستمتاع بالتواصل والتعرف إلى جفُّول؛ تنسيه كل الأمور الأخرى التي تضايقه، خاصة عمه الذي كان يستقبله بوجهه العابس وكلماته اللاذعة.

«اذهب وجِدْ ذلك الحصان اللعين!».

صرخ عمه في وجهه حين وصل خليفة إلى الإسطبل. ولم يرد خليفة أن يخبره بأنه كان يساعد ابنته منذ الصباح الباكر. لا فائدة من كسب رضا عمه.

«أنت تعلم أن عندي ضيوفاً وليس لدي وقت لهفواتك! أحضر ذلك الجواد النحس لأن ضيوفي يرغبون في شرائه!».

صعق خليفة لما سمعه. هل سمع جيداً؟ هل قال شراؤه؟ مستحيل! من يريد شراء جفُّول؟ لا يمكن أن يدع عمه يبيع صديقه والمخلوق الوحيد الذي يجعله يتحمل العيش في هذا المكان! هذه المرة لن يسكت في وجه عمه.

«لن تبيعه!» قال خليفة بهدوء وهو يحمل حقيبة الشاي والقهوة ويضعها بهدوء تام أمام عمه الذي كان ينتظره في «البرزة». انحنى العم في جلسته مقترباً من خليفة الذي يجلس القرفصاء يرتب الصينية على الأرض.

«ماذا قلت؟ أتأمرني يا ولد؟» همس العم على جنب وجه خليفة الذي كان يَصُفُّ دلّة الشاي والقهوة في الصينية ويرتب الأطباق على السرّود[1]. لم ينظر إلى وجه عمه المنحني عليه، كان خليفة يجلس على ركبتيه يرتب أكواب الشاي. لم يستطع وقف ارتعاش يديه.

(1) السرّود: سفرة مصنوعة من سعف النخيل الجافة وتستخدم سفرةً للطعام في دولة الإمارات العربية المتحدة.

«لا، أنا لا آمرك، ولكن...»

«لكن ماذا؟» صاح العم.

«سأشتريه!» هتف خليفة دون تفكير. لا يعرف خليفة من أين سيأتي بالمال. لكن لا يهمه الآن سوى الاحتفاظ بجفّول. ضحك عمه بصوت عالٍ وظل يسعل بقوة من أثر الضحك؟

«تشتريه؟! أنت؟ أجننت يا فتى المدينة؟!».

لم يجب خليفة. ففي تلك اللحظة وصل الضيوف. ألقى عليه عمه نظرة أخيرة مستهزئة، وهتف به آمراً:

«ابحث عنه قبل أن يتسبب في مشاكل أخرى نحن في غنى عنها الآن!»

ترك خليفة مكانه وهو يسمع عمه يسخر بصوت عال: «سأشتريه قال! نكتة اليوم هههههه!»

أسرع خليفة كالبرق وترك دراجته فهو لا يحتاج إليها. خرج من بوابة الإسطبل وهو يشعر بغضب جامح ولم يلتفت حتى إلى سيارة الضيوف التي دخلت من بوابة المرزعة.

جفُّول حصاني ولن يأخذه مني أحد!

قال خليفة في نفسه وهو يتقدم من جفُّول الذي كان يقضم العشب. لقد صار هذا مكان جفُّول المفضل. يبعد بضعة كيلومترات عن المزرعة في منطقة منخفضة خلف تل

صخري كبير. يحب جفُّول الركض هناك بسبب وفرة العشب في ذلك المكان. تناثرت أيضاً بعض من أشجار الغاف الكبيرة التي يمكن أن يجلس تحتها ويستظل بها.

حين شعر جفُّول باقتراب خليفة ركض بعيداً قليلاً ليكمل لعبة الركض والاختباء. لكنه توقف حين لاحظ أن خليفة جلس تحت الشجرة ولم يلتفت إليه. شعر خليفة بتردد جفُّول لكنه لم يرفع رأسه. لم يكن خليفة لديه المزاج للعب. أمران كانا يشغلانه بجفُّول، الأمر الأول: كيف يمنع عمه من بيع الخيل، والثاني: هو أن خليفة تعلق كثيراً بالخيل، خاصة حين امتطاه آخر مرة. منذ ذلك الوقت وهو يحاول أن يمتطيه لكن دون فائدة. كان يبتعد عنه جفُّول كلما أحس بمحاولة خليفة الصعود عليه، وإن استطاع خليفة أن يرفع نصف جسمه عليه كان يوقعه أرضاً.

سمع صوت حمحمة جفُّول وقد صار قريباً منه الآن. ظل خليفة مدلِياً رأسه مدعياً أنه حزين. انحنى الحصان برأسه بالقرب من وجه خليفة وأصدر شخيراً. ضحك خليفة وربت على خطم جفُّول لم يستطع مقاومة مداعبته فأخرج تمراً من جيبه وأعطاه إياه. استمتع جفُّول لبرهة بالتمر ثم اقترب ثانية من خليفة يلثم وجهه؛ حاول خليفة إبعاده لكن جفُّول أصر وخطف غترة خليفة بواسطة أسنانه ورماها على الأرض.

«ماذا تريد، ها؟» سأله خليفة وهو يستعيد غترته ويمررها

أمام وجه جفُّول مداعباً. ثم مررها على عنقه بخفة. لم يمانع الخيل بهذه المداعبة. ثم فكر خليفة أن يفعل شيئاً لم يجربه من قبل. ربط الغترة حول رقبة جفول وكأنه وشاح.

«مرحباً بالجفُّول العربي!» قال خليفة وهو يضحك. أخرج هاتفه وأخذ صورة سلفي مع الخيل. كان ألبوم صور خليفة في الماضي مليئاً بصور أنواع مختلفة من سيارات الفورمولا. أما الآن فهي مليئة بصور جفُّول منذ أن كان مهراً صغيراً. كانت لديه أيضاً صورة لـ «مليحة» وكان يريها جفُّول حتى لا ينساها ويحدثه عنها حين يكونان وحيدين.

أدخل هاتفه داخل جيبه ثم ربَّت على عنق جفُّول الممشوقة، واستمر بمسحها إلى أن وصل إلى ظهره. بعدها حاول خليفة القفز في مكانه إلى الأعلى وإلى الأسفل لكن بخفة وليس عالياً وهو مازال يضع كفيه على ظهر الخيل. لم يمانع جفُّول، ظل واقفاً مشغولاً بالحشرات التي ترفرف على الأغصان.

ظل خليفة يقفز ويقفز بخفة مسنداً كفيه على ظهر جفُّول ثم وثب بسرعة وألصق بطنه على ظهر جفُّول ورفع إحدى قدميه عالياً فتأرجح جسمه للأعلى فوجد نفسه جالساً على ظهر الجواد. اعترض جفُّول قليلًا وأدار رأسه محاولاً قضم سروال خليفة لإنزاله. أمسك خليفة بالغترة الملتفة حول رقبة الحصان بيده اليمنى ثم بيده اليسرى أخرج تمرة أخرى وقربها من فم جفُّول.

هـدأ الحصـان حيـن رأى التمـر والتهمـه مباشـرة ونسـي وجـود خليفـة علـى ظهـره.

ظـل هكـذا لدقيقـة مسـتمتعاً بقدميـه معلقتيـن علـى جانبـي بطـن المُهْـر. ثـم حـرك قدمـاً واحـدة علـى جنـب جفُّـول الـذي انطلـق فـي هرولـة إلـى الأمـام. تمسـك خليفـة بالغتـرة ونبضـات قلبـه تـزداد. نصـب ظهـره لأنـه لاحـظ الفرسـان حيـن يتدربـون يجلسـون هكـذا. واسـتمتع بالهـواء يداعـب وجهـه والنظـر حولـه فـي الأفـق مـن فـوق صهـوة الجـواد. تلـذذ بـأول تجربـة لـه فـي امتطـاء خيلـه. نعـم خيلـه، ولـن يسـمح أن يأخـذه عمـه منـه.

كارثة خيل

لـم يذكـر العـم موضـوع بيـع جفُّـول ثانيـة وتمنـى خليفـة أن يكـون قـد عـدل عـن رأيـه، حتـى إن خليفـة نسـي الموضـوع تمامـاً لكثـرة انشـغاله بامتطـاء جفُّـول دون سـرج والانطـلاق بـه فـي منطقتهـم المفضلـة التـي يقضيـان وقتهمـا معـاً يلعبـان فيهـا بعيـداً عـن الأنظـار. مـع مـرور الأيـام أصبحـت العلاقـة بيـن خليفة وخيلـه قويـة جـدًا؛ فـلا يطيـق خليفـة فراقـه لفتـرة طويلـة؛ عاتبتـه هِنْـد مـرة لأنهـا حيـن تأتـي مـع أبيهـا لتتفقـد الخيـول لا تجدهمـا.

«أنـت تسـتغرق وقتـاً طويـلاً لاسـترجاع جفُّـول مـن عنـد الجيـران بعـد هروبـه، وقتـاً أكثـر مـن ذي قبـل!».

قالـت لـه ذلـك مـرة بعـد الغـداء. رمقـه عمـه بعينيـن حادتيـن ينتظـر جوابـه. حتـى خديجـة كانـت كلهـا آذانـاً صاغيـة.

«أصبـح أسـرع وأقـوى. فيذهـب أبعـد مـن ذي قبـل!» قـال

خليفة وهو يشعر بعدم الارتياح لكذبته البيضاء. التقت عيناه عيني نورة زوجة عمه فابتسمت له ابتسامتها الحنون. أنزل خليفة رأسه محاولاً تجنب نظراتها؛ فهو لا يحب أن يكذب عليها لأنها أكثر واحدة في هذا البيت تعامله بلطف. إضافة إلى هِنْد أحياناً.

«ربما يخطط للهرب إلى المدينة مع الخيل!» قالت سلامة باستهزاء.

ضحك عمه على تعليقها وقال:

«إنه حتى لا يعرف كيف يمتطي حصاناً فكيف له الهروب معه؟»

ظل خليفة ساكتًا؛ فهو لا يريد أن يعرف أحد أنه يمتطي الحصان ودون سرج ولجام أيضاً؛ فهو يرفع يديه كالطير بينما يهرول الجواد برشاقة؛ إنهما ينسجمان مع بعضهما تماماً كأنهما جسد واحد. إن كشف أمره الآن لن يدعه عمه امتطاء الخيل أبداً. ظل يمضغ لقمته بصمت.

«بالعكس إنه يعرف كيف يمتطي الحصان!» صرخت خديجة!

غص خليفة باللقمة التي ظلت أكثر من اللازم في فمه وظل يسعل كي يسترجع أنفاسه. نظر الجميع إليه وحدقوا أعينهم مندهشين؛ ماذا تقول هذه الصغيرة؟ كيف لها أن تعرف سره؟

«كيف تعرفين؟ هل رأيته؟» سألت هِنْد بريبةٍ،كتم خليفه أنفاسه. سينكشف أمره الآن.

أومأت خديجة برأسها وهي تمسك بحبات الأرز بين أصابعها الصغيرة وتضعها في فمها. بلع خليفة ريقه وشعر بأن اللقمة مازالت واقفة في حلقه. بدأت حبات من العرق تتجمع على جبينه.

«أين؟ أين رأيته؟» سألت هِنْد بلهفة.

أشارت خديجة إلى رأسها.

«في رأسك؟ كيف ترينه في رأسك؟» قالت سلامة بعصبية.

«في الحلم في الحلم، ألا تعرفين شيئًا؟» هتفت خديجة والضجر ظاهر عليها. ضحك الكل على تعليقها ما عدا خليفة الذي أطلق زفرة طويلة. حقاً شعر بأن نفَسَه قد انقطع لبرهة.

* * *

بعد الغداء جلس خليفة في غرفته ينهي واجباته المدرسية. لم يرَ جفُّول منذ يومين؛ لأن عليه الذهاب مع عمه إلى سوق السمك الذي يبعد نحو ساعة من منطقتهم. استغرقت الرحلة طويلاً، وعند الرجوع لم يستطع الذهاب إلى جفُّول لينهي واجباته المدرسية.

لـم يتوقـف عـن النظـر فـي سـاعته كل دقيقـة. لكـن ينتظـره امتحان إعـادة لأنـه حصـل علـى درجـة متدنيـة فـي اختبـار الاجتماعيـات وقـال لـه معلمـه إنـه سـيمنحه فرصـة أخيـرة لتعديـل درجتـه. وحيـن اعتقـد بأنـه لـن ينتهـي أبـدًا، أغلـق الكتـاب ووضعـه فـي حقيبتـه وفتح بـاب غرفتـه ليخـرج. ولكـن فاجأتـه خديجـة وهـي تجلـس عنـد عتبـة بـاب غرفتـه وقـد قامـت بصـف ألعابهـا علـى الرمـل.

«ماذا تفعلين يا خوخة؟» سألها وهو يغلق باب غرفته.

«العب معي. خيولنا تنتظرنا!».

«آه خدوجة لا أستطيع! فأنا لدي عمل في الإسطبل!» لكنها تعلقت في قدمه تطلب الذهاب معه، فحملها وأخذها إلى البيت.

«لا، لا...» قالـت وهـي تشـير بيدهـا إلـى خيولهـا الألعـاب التي كانـت مرميـة بالقـرب مـن بـاب غرفتـه، لكـن لـم ينتبـه لهـا خليفـة وأدخلهـا إلـى البيـت، وطلـب منهـا أن تذهـب إلـى أخواتهـا وألا تخـرج. أغلـق البـاب خلفـه حيـن تأكـد مـن سـماع صـوت سـلامة وهـي تصـرخ متأففـة مـن شـيء مـا. ركـض إلـى دراجتـه الهوائيـة وانطلـق باتجـاه الإسـطبل.

حيـن وصـل بـدأ أولاً بأعمالـه المعتـادة مـن تنظيـف وكشـط الرمـل وتنظيفـه مـن الـروث. ثـم بإعـداد الطعـام بتوزيـع العلـف والحبـوب ووضـع الكميـات المطلوبـة لـكل خيـل. اسـتغرق ذلـك كلـه تقريبـاً سـاعة. حيـن اقتـرب مـن مقصـورة جفُّـول

لإعطائه طعامه، صهل الخيل معبراً عن فرحته لرؤية خليفة، فظل يرقص ويقفز كالجرو في الداخل.

حين أوشك أن يفتح باب المقصورة شعر بيد تسحب سرواله. تفاجأ حين نظر خلفه فرأى خديجة تقف مع بعض من ألعابها في يدها بالقرب منه وابتسامة عريضة على وجهها. كانت خداها محمرة كثيراً من شدة الحر. لم يصدق خليفة عينيه. لقد مشت المشاكسة الصغيرة من البيت إلى الإسطبل وحدها!

ترك دلوَ جفُّول؛ فقد نسي أمره. خاف أن تصاب خديجة بضربة شمس؛ حملها وذهب مباشرة إلى غرفة مؤونة الخيول حيث توجد مغاسل. وظل يغسل وجه خديجة ليقوم بمحاولة تبريدها. كانت تهذرب كعادتها؛ تخبره بأنها نسيت ألعابها عند باب غرفته ثم لحقته مشياً على الأقدام. سكب لها خليفة ماءً بارداً من براد الماء وطلب منها أن تشرب على مهل. عليه أن

يرجعها إلى البيت حالاً قبل أن ينتبه إلى ذلك أي أحد.

«لا أريد الذهاب! لا أريد الذهاب!» صرخت خديجة.

«سنذهب وسألعب معك!» وعدها خليفة.

حملها وأخذها إلى دراجته الهوائية. ثم سمع صهيل جفُّول؛ لقد نسي أمره ولم يقدم له طعامه. عليه أن يطعمه قبل الذهاب. حين حاول إنزال خديجة طوقت ذراعيها الصّغيرتين حول رقبته بإحكام ورفضت النزول. فاضطر أن يحملها معه متجهاً إلى مقصورة الخيول. حاول إقناعها بأن عليه أن يطعم جفُّول قبل أن يلعب معها في البيت، قبلت النزول على مضض. طلب منها أن تبقى مكانها بعيداً إلى أن يعطي الطعام للحصان. تركها وذهب ليفتح باب مقصورة جفُّول.

وليته لم يفعل! كان جفُّول يتوق إلى الخروج لأنه كان سجين المقصورة منذ يومين، فبمجرد أن فتح الباب، حتى انطلق جفُّول إلى الأمام وفرّ هارباً. سمع خليفة صرخة خديجة وامتلأ الرعب في قلبه. خرج من المقصورة فتفاجأ بوجود خديجة ملقاة على الأرض مغمى عليها وغبار الرمل يملأ المكان بعد هروب الخيل المجنون. هرع إليها خليفة وحاول إيقاظها. جمد في مكانه حين شاهد الدم يسيل بجانب رأسها.

«خوخة! خوخة!» صرخ خليفة وهو يحاول مسح الدموع من وجهها ولم يعرف أنّها كانت دموعه التي كانت تتساقط على خدها المحمر.

هدوء عاصفة

سمع خليفة خبطاً على باب غرفته.

«خليفة! افتح الباب!» لكن لم يرغب خليفة فتح الباب. لقد مضى عليه خمس ساعات وهو في غرفته منذ حادثة خديجة مع الخيل. استمر الخبط على الباب من قبل هِنْد. خاف أن يفتح ويسمع أخباراً سيئة عن خديجة. خديجة الصغيرة المليئة بالحيوية والنشاط، خديجة التي تحبه وتفرح حين تراه، وتضحك على حركاته ومحادثاته. لا يستطيع أن يتخيل هذا المكان من دونها. لن يستطيع أن يسامح نفسه أبداً إذا حدث لها مكروه.

لقد اتصل مباشرة بزوجة عمه حين وقع الحادث. وصلت في دقائق معدودات واستمعت إليه بهدوء حين أخبرها بما حدث. طلبت منه ألّا يقلق ونصحته أن يجلب جفُّول قبل أن يأتي عمه. ثم انطلقت في سيارتها الرباعية مع خديجة إلى

المستشفى. كم يعجب خليفة بهدوئها ورباطة جأشها! يتذكر كم كانت أمه تنهار من منظر الدم أو خدش بسيط كان يصاب به أحياناً بعد اللعب مع أصحابه.

وجد جفُّول بسرعة حيث لم يبتعد كثيراً. امتطاه بسهوله ورجع به إلى الإسطبل دون أن يهتم إن رآه أحد هذه المرة. كان حارس الإسطبل موجوداً فاستغرب لرؤيته فوق ظهر المُهْر ولم ينطق بشيء. أراد جفُّول اللعب مع خليفة لكن خليفة دفعه إلى داخل المقصورة بغضب وتركه دون أن يلتفت إليه. رجع خليفة إلى البيت ودخل غرفته دون أن يخرج منها مخافة أن يسمع خبراً يحزنه عن خوخة الصغيرة. لمَ لا يستطيع أن يعيش حياة عادية كالباقين؟

استمر الخبطُ على بابه، فحضن خليفة نفسه وظل يهز نفسه إلى الأمام وإلى الخلف ويتمتم هو جالس على الأرض.

«كوني بخير، كوني بخير».

انفتح الباب فجأة ودخلت هِنْد، وقفت أمامه لكنه لم يتحرك. جلست القرفصاء بجانبه ثم أمسكت يده. لم يلتفت إليها ولم يسحب يده. ثم قالت:

«إنها بخير!».

❊ ❊ ❊

دخل خليفة بيت عمه في الصباح الباكر فاستقبلته خديجة بالركض ورمي نفسها في أحضانه. حضنها لفترة وحمد الله أنها بخير. ثم نظر في وجهها وقال:

«هل يؤلمك الجرح؟».

«لا، أنا قوية». قالت بحماس وهي ترفع بُكلَتَهَا كي يرى «انظر؟»

لم تكن إصابتها خطِرة، فقط ندبةً خفيفةً على جبينها حين ركضت خوفاً من جفُّول، فارتطم رأسها في الجدار. استعادت عافيتها كاملة وكأن شيئاً لم يكن. الغريب أن عمه لم يتحدث إليه ولم يحاول مقابلته لاستجوابه عن الحادث.

«أين عمي ذياب؟» سأل خليفة.

«لقد خرج باكراً». قالت زوجة عمه وهي تضع صينية عريضة عليها خبز رقاق[1] على الطاولة.

هتفت سلامة وهي تضع يديها على خصرها: «خرج؟!» كانت مرتدية زيها المدرسي ورمت حقيبتها بعنف على الأرض، ثم أكملت بتذمر:

«لكن عندي امتحان يا أمي! سأتأخر!».

(1) خبز الرقاق: نوع من أنواع الخبز الإماراتي رقيق ومقرمش، يدهن بالسمن الإماراتي.

«لا تقلقي؛ هيا أفطري بسرعة وأنا سآخذكم إلى المدرسة هذه المرة». أجابت والدتها.

«حتى أنا! حتى أنا!» قفزت سلامة فرحة.

«آخ! هذا يعني أن علينا الاستماع إلى أغاني طيور الجنة طوال الطريق!» قالت هِنْد وهي تجدل شعرها بسرعة فائقة.

جلس خليفة بكل هدوء يأكل وهو شارد يفكر كيف سيواجه عمه بعد ما حدث. لا يريد مواجهة أخرى، وشعر بالارتياح حين عرف أنه ليس هنا، لكن شعوراً في داخله يضايقه. تجاهله حين سألته زوجة عمه:

«خليفة يمكنني أن أوصلك للمدرسة إن شئت».

هز رأسه وقال إنّه يفضل الذهاب بدراجته الهوائية. لكن خديجة أصرت أن يذهب معهم كي تسمعه أغنيتها المفضلة، فوافق على مضض من أجلها وتجاهل نظرات سلامة القاتلة.

بعد أن رجع خليفة من المدرسة، لم يكن عمه موجوداً وقتَ الغداء. ازداد توتر خليفة؛ فهو يريد أن ينتهي من مواجهة عمه بشأن الحادث وأن ينتهي من الانتظار. أخبرته زوجة عمه بأنه طلب أن يؤخذ الغداء إلى الإسطبل وأرسل الحارس ليأخذه. غريب لم يعتد أن يرى عمه يأخذ غداءه في الإسطبل، كان يتناول الفطور فقط هناك.

لـم يستطع إنهـاء طبقـه مـن كثـرة انشـغاله بغيـاب عمـه. رجـع إلـى غرفتـه ليستكمل دروسـه ويجهـز نفسـه للامتحـان، واسـتطاع أن ينتهـي مـن واجباتـه بسـرعة. لاحـظ أن غرفتـه مليئـة بالغبـار فقـرر أن ينظفهـا. لاحـظ أن ملابسـه معلقـة بطريقـة عشـوائية علـى الـمِشْجَب، فأنزلهـا ليرتبهـا؛ فوضـع الملابـس النظيفة في الخزانة والمتسـخة فـي سـلّة الغسـيل.

ثـم رأى علـى الأرض «غترتـه» التـي كان يلفهـا حـول عنـق جفُّـول فأمسـكها وهـو يفكـر فيـه. لـم يـره منـذ الحادثـة، وتذكـر أنـه تركـه وحيداً وذهـب عنـه وهـو غاضـب. وضعهـا علـى رقبتـه وخـرج مـن غرفتـه؛ فقـد قـرر أن يتفقـد جفُّـول.

* * *

وصـل إلـى الإسـطبل ولـم يجـد سـيارة عمـه «البيـك آب» فتوجـه مباشـرة إلـى مقصـورة الجيـاد. لـم يلتفـت إلـى أي حصـان. بـل ذهـب مباشـرة إلـى مقصـورة جفُّـول، لكنـه لـم يكـن فـي الداخـل. آه يبـدو أنـه هـرب ثانيـة. ضحـك خليفـة فـي نفسـه. حسـناً هـو يعلـم أيـن يجـده فمـن المؤكـد أنـه يختبـئ المـراوغ في مكانـه المعتـاد. ذهـب مشـياً علـى الأقـدام باتجـاه التـل الصخـري ودار خلفـه حيـث البراحـة الواسـعة التـي كان يتـدرب فيهـا علـى امتطـاء جـواده. وقـف يـدور حـول نفسـه فـي المـكان الشاسـع تحـت أشـعة الشـمس الحارقـة؛ لـم يـرَ أي أثـر لجفُّـول..

ربما ذهب الحصان إلى مزرعة أحد الجيران؛ لأنه لم يجد أحداً يلعب معه. قرر أن يمر على الجيران للبحث عنه لكنه تذكر أنه جاء على قدميه. الأفضل له أن يرجع ويأخذ دراجته الهوائية ويلف «الغترة» حول رأسه جيداً حتى لا يتعرض إلى ضربة شمس؛ كان الجو حاراً أكثر من المعتاد.

حين رجع خليفة إلى الإسطبل، أخبر الحارس بأن يهتم بالجياد لأنه سيبحث عن جفُّول عند الجيران، لكنه صدم حين قال له الحارس بأن لا يتعب نفسه في البحث فقد أخذه العم ذياب.

«إلى أين؟» سأل خليفة وقد شعر بأن الدنيا تدور به.

«مزاد الخيول».

عاد خليفة مسرعاً إلى بيت عمه ودخل المطبخ فجأة ووقف أمام زوجة عمه وهو يلهث. كانت تعجن خبزاً للعشاء. مسحت يدها على «مريولها» ونظرت إليه باهتمام.

«خالة نورة، لقد أخذه... لقد أخذه».

«اهدأ خليفة، اهدأ يا ولدي، عمَّ تتحدث؟».

ربتت على كتفه وقادته إلى الطاولة ليجلس. دخلت هِنْد إلى المطبخ عندما سمعت صوت الباب الذي فتحه خليفة بشدة. فطلبت منها أمها أن تسكب ماءً بارداً لخليفة. حين شرب الماء، هدأ خليفة وقال:

«لقد أخذ عمي ذياب جفُّول إلى المزاد ليبيعه!».

«ماذا؟» هتفت هِنْد، ومباشرة بدأت الدموع تنسكب على خديها.

«كيف عرفت يا خليفة؟» سألت نورة وهي تغسل يدها في المغسلة.

«الحارس أخبرني» أجاب وهو يضع وجهه في يده. ثم أكمل حديثه:

«خالتي نورة، ماذا سأفعل؟ أنا أريد الجواد، أخبرت عمي بأنني سأشتريه. لكنه رفض».

أومأت برأسها وخرجت من الغرفة. ظل خليفة جالساً لفترة يستمع لنحيب هِنْد. ثم دخلت نورة بعباءتها وحجابها الأسود. نظر إليها خليفة وهِنْد باستغراب.

«سآخذك إلى هناك».

مزاد الخيل

كان مـزاد الخيـل يبعـد مسـافة سـاعة تقريبـاً عـن مسـكنهم. وفـي الواقـع لـم يكـن مـزاداً كبيـراً مثـل الـذي يقـام فـي المدينـة، وإنمـا مـزاد خـاص جـداً يقـام مرتيـن فـي السـنة، هـذا مـا أخبرتـه زوجـة عمـه. ظـل خليفـة متوتـر الأعصـاب طـوال الطريـق خائفـاً أن يكـون قـد فـات الأوان وأن عمـه قـد بـاع جفُّـول. وعنـد وصولهمـا إلـى مـكان المـزاد، أوقفـت سـيارتها عنـد المدخـل فنظـر إليهـا ممتنـاً وقـال:

«شكراً خالة نورة. أنا...»

«خليفـة أنـت مثـل ابنـي. كنـت سـأفعل الشـيء نفسـه مـع أطفالـي. مـاذا سـتفعل؟

«أريد توديعه على الأقل!»

«أنت تحبه كثيراً».

«هو أعز شيء بالنسبة لي الآن.»

ربتت الخالة نورة على رأسه ثم قالت: « هل أنت مستعد ؟ » .

«نعم». نزل ولوَّحَ لها وهي تبتعد بسيارتها. ثم أخذ نفساً عميقاً ودخل من المدخل. لحظ حشداً من الناس متجمعين حول ميدان رملي. عدد كبير من الناس واقف يراقب ما يحدث في الحلبة. ورأى أيضاً منطقة أخرى على يمين الحلبة مظللة يجلس فيها كبار الشخصيات. جال خليفة بنظره باحثاً عن منطقة حفظ الخيول التي ستباع في المزاد. تقدم ووقف بين الرجال ليرى ما يحدث. كان المكان مكتظاً بهواة الخيول والمتفرجين. سمع صوت رجل ينادي على اسم الخيل وصاحبه. لاحظ جلبة في شمال الحلبة فرأى أن الخيول تدخل من ذلك المكان.

وبالفعل خرج رجل وهو يقود فحلاً أسود يمشي بخُيلاء أمام الحضور. كان يركض بخفة ويتباهى بقوامه ومرونته في الحركة. تحرك خليفة واتجه ناحية خروج الخيول من مقصورة المزاد حيث كانت مجموعة من الخيول جاهزة في الداخل لعرضها في الساحة. منعه رجل من التقدم أكثر وقال له: أنّ الذين يحملون تصريحاً، هم فقط من يُسمح لهم بالدخول دون غيرهم.

فكر خليفة بخطة أخرى. ربما سيوفر وقتاً إن وجد عمه وسأله بدلاً من البحث عن إبرة في كومة قش. أخرج هاتفه وحاول الاتصال بعمه، ولكنه لم يرد. ربما لأن المكان كان صاخباً أو ربّما كان عمه منشغلاً ببيع جفُّول. تسارعت دقات قلبه. جال بنظره بين الحشد. وظل يتمتم:

«أين هو؟ أين هو؟».

ثم رأى منطقة أخرى وكأنها «برزة» كالتي في إسطبل عمه. لكنها أوسع وأفخم وبها ظل كبير. كان هناك مجموعة من الرجال يجلسون يتسامرون ويتحدثون في أمور الجياد وأعمال أخرى. فجأة رآه. رأى عمه يقوم بمصافحة رجل آخر وكأنهما اتفقا على شيء. تقدم قليلاً وحاول أن يندمج مع الرجال حتى لا يحس به أحد. كان هناك شباب من سنه أيضاً يجلسون ويستمعون إلى محادثات الكبار فجلس بجانبهم.

«لقد أحسنت الاختيار يا شيخ عبد العزيز. فحل قوي وسريع. القرية كلها تعرفه وسمعت عنه». قال عمه متباهياً.

لم يجب الشيخ بل ابتسم وظل يرتشف قهوته في هدوء. إذن فعلها عمه! باع جفُّول لهذا الشيخ الذي يظهر عليه أنه رجل مهم في المنطقة. شعر خليفة بتدفق الدم إلى رأسه من غضب يتصاعد، وخاف أن ينفجر في أي لحظة أمام الرجال ويفضح نفسه.

تراجع إلى الخلف وابتعد عن التجمع بكل هدوء. مشى بثبات ورباطة جأش يحاول إقناع نفسه بأن هذا قدره وعليه أن يقبله ويعتاد على العيش من دون حصانه. تحولت خطواته إلى هرولة حين هبت عليه رائحة الخيول التي كانت تثير اشمئزازه في الماضي. شعر بلوعة شوق إلى جفُّول؛ فركض، وركض بعيداً عن المجلس مروراً بجانب الحلبة ليصطدمَ بالحشد.

كانت دموعه تهدد بالنزول، وخاف أن يراه أحد وهو على هذه الحال. لماذا يبدو المخرج بعيداً؟ توقف وهو يلهث يلتفت يميناً وشمالاً يبحث عن المخرج. رأى بوابة مفتوحة فاتجه إليها، وحين وصل إليها تعثر ووقع على الرمل. ضرب بيده على الرمل بغضب. ثم تابع الضرب وهو يصرخ بقهر.

«لا... لا... لا... لا!».

ثم سمع صهيلاً مألوفاً. رفع رأسه واكتشف بأنه لم يكن قد خرج من المدخل الرئيس الذي أنزلته عنده زوجة عمه. بل كان مخرجاً خاصّاً للعربات التي تنقل الخيول. سمع الصهيل ثانية. ازدادت ضربات قلبه؛ فهو متأكد من أنه يشبه صهيل جفُّول. قام من مكانه وأخذ «غترته» التي وقعت على الأرض ونفضها من الرمل ومشى باتجاه ناقلة تجمَّع حولها رجال يحاولون إدخال فحلٍ رغماً عنه. وكان لونه رمادياً بنياً!

جفُّول! هتف خليفة.

لـم يلتفـت إليـه الرجـال لكـن فجـأة سـكن الحصـان وتحركات أذنـاه بنشـاط ناحيـة المنـاداة. نفـخ خليفـة بفمـه ليصـدر الصـوت المألـوف الـذي يخاطـب بـه جفُّـول دائمـاً. رفـع جفُّـول رأسـه إلـى الخلـف وصهـل بصـوت عـال. ثـم صـرخ خليفـة وهـو يلـوح «بغترتـه» إلـى الأعلـى.

«أنا هنا! اركض! اركض كالطوفان».

رجـع جفُّـول علـى قائميـه الخلفييـن وهـو يجلجـل باشـتياق إلـى خليفـة. انفـض مـن حولـه الرجـال الذيـن كانـوا يمسـكون بـه مخافـة أن يركلهـم. ثـم انطلـق الجـواد باتجـاه خليفـة بسـرعة البـرق. لـوح الرجـال بأيديهـم لخليفـة أن يبتعـد عـن دربـه. لكـن خليفـة لـم يفعـل بـل ظـل واقفـاً أمامـه بانتظـاره.

«خليفـة! مـاذا تفعـل هنـا يـا ولـد!» سـمع خليفـة صـوت عمـه فـرآه قـد جـاء مـع الشـيخ لمتابعـة الأمـور. لكـن لـم يلتفـت لـه بـل تسـمّر فـي مكانـه فـي مواجهـة جفُّـول. وحيـن وصـل قريبـاً منـه وثـب عليـه خليفـة بخفـة وامتطـاه أمـام أعيـن الجميـع الذيـن كانـت أفواههـم مفتوحـة مـن أثـر الصدمـة.

ظـل الحصـان يعـدو مسـرعاً وخليفـة يحثـه؛ هيـا... هيـا... يـا طوفـان! اقتربـا مـن السـور وكان علـى خليفـة أن يقـرر إمـا التوقـف أو الرجـوع، أو القفـز فـوق السـور. لـم يكـن عاليـاً جـداً، لكنـه لـم يقفـز مـع جفُّـول مـن قبـل. لـم يكـن مجـال أكبـر للتفكيـر؛ فقـد اقتربـا كثيـراً؛ أحكـم قبضتـه علـى شـعر حصانـه فقفـز المُهْـر

فـوق السـور بـكل سـهولة كأنـه محتـرف أمـام أعيـن الجميـع، ومنهـم عمـه المصـدوم والشـيخ الـذي كان يتفـرج بإعجـاب على الموقـف. ضحـك خليفـة ولـوح بيـده مودعـاً. أشـار الشـيخ بيـده لرجالـه فركبـوا سـياراتهم الرباعيـة ليتبعـوا خليفـة وحصانـه.

اسـتمر خليفـة يحـث حصانـه علـى الركـض لبضـع ثـوان، وحيـن شـعر بأنهمـا صـارا بعيديـن سـمع صـوت اقتـراب سـيارتين رباعيتيـن منـه. رص قليـلاً بقدميـه علـى بطـن حصانـه ومـال بجسـمه إلـى الأمـام كـي يسـرع جفُّـول. شـعر خليفـة بالخـوف مـن السـقوط فهـو لـم يسـرع هكـذا مـن قبـل. بـدأ الطريـق يتغيـر مـن طريـق رملـي إلـى طريـق حصـوي، وبـدأ ظهـور مبـانٍ ومحـلات علـى جوانـب الطريـق. التفـت إلـى يمينـه فوجـد رجـال الشـيخ يقتربـون منـه بسـيارتهم. وعلـى يسـاره كان الشـيخ يقـود سـيارته بنفسـه وقـد أنزل النافـذة محاولـة للتحـدث مـع خليفـة.

نظر خلفه فرأى عمه يلاحقه بسيارته «البيك آب». حسناً سأعلمك درساً. اتجه ناحية البائعين الذين يبيعون السجاد على الطريق لأن سيصعب على السيارات أن تلحق به في ذلك الاتجاه. مرّ بجانبهم فتطايرت أغراضهم وركض بعض الباعة خلفه معبرين عن سخطهم، لكن ارتعبوا أكثر حين رأوا السيارات الرباعية مسرعة في اتجاههم. توقفت إحدى السيارتين فجأة في آخر لحظة قبل أن تصطدم بالرجال أو محلاتهم المتراصة.

ابتعد خليفة مع جفُّول وخفف سرعته قليلاً لأنه شعر بعلامات التعب بادية على حصانه. توقفا بالقرب من بعض الأشجار على الطريق. ربت خليفة على ظهر جفُّول ثم حضن رقبته وقبل رأسه. ثم استنشق رائحته وتنهد:

«اشتقت إليك».

رفع المُهْر رأسه وأصدر جلجلة تطرب القلب انتشرت في أرجاء المكان وجعلت العصافير التي كانت تحط على الأغصان تطير بعيداً مرتعبة. فقلده خليفة بإصدار الصوت نفسه.

سمع خليفة صوتاً آخر يشق صمت هدوء الطبيعة، صوت رنين هاتفه. أخرجه من جيبه وضغط على زر الاستقبال.

«ألو؟»

«السلام عليكم. معك الشيخ عبد العزيز. هل يمكننا أن نتحدث؟».

طوفان

جلس خليفة أمام الشيخ عبد العزيز في «البرزة» نفسها في منطقة مزاد الخيل حين كان عمه يتحدث عن بيع جفُّول. شعر وكأن ذلك المشهد حصل منذ فترة طويلة. شعر بأن دقات قلبه تنبض بشدة يكاد يسمعها كل من حوله. بعد أن تحدث إليه الشيخ على الهاتف، أرسل له فريقه فأعادوه إلى حيث كان ينتظره في ميدان المزاد. لا يعرف خليفة لِمَ شعر بالراحة والفضول في الوقت ذاته من المكالمة التي تلقاها من الشيخ، فوافق مباشرة على الرجوع ومعرفة ماذا يريد. طبعاً واجه الفريق جملة من المتاعب مع جفُّول. لأنه لم يرغب في ركوب ناقلة الخيل. لكن تمكنوا أخيراً من إقناعه بتقديم الماء وبعض الأكل لأن جفُّول. كان جائعاً من أثر الركض.

ازداد عدد الجلساء في المجلس ومن بينهم عمه الذي كان وجهه محتقناً من الغضب. حين رآه عمه في الوهلة الأولى

كاد أن يضربه أمام الجميع لكن رجال الشيخ أوقفوه قبل أن يلمسه. جلس خليفة ينظر إلى نقوش السجادة أمامه ويفكر فيما يمكن أن يحدث الآن. كان يعلم أنه ارتكب فعلة لا تغتفر بسرقة الحصان وممَّنْ؟ من شخص غير عادي، من شيخ يبدو ذو مكانة مرموقة.

«هل لديك ما تقوله يا خليفة؟» شق الصمتَ سؤالُ الشيخ عبد العزيز.

ظل خليفة ساكتاً مع أنه أراد أن يخبر هذا الرجل ذا الوجه السمح والملامح الطيبة عن شعوره تجاه جفُّول.

«لن يقول أي شيء فمثله يجب أن يخجل من نفسه! عليك بضربه أو معاقبته على فعلته الشنيعة وأنا موافق على أي قرار تتخذه تجاهه!» هتف العم بغضب وهو يشير بإصبعه ناحية خليفة. لكن حين سمع خليفة اتهام عمه رفع رأسه وقال بصوت عال:

«لم أفعل شيئًا! كلُّ ما فعلته أنني امتطيت حصاني لآخر مرة في حياتي!».

«إنه لم يكن في الأصل ملكاً لك. هل هذا جزاء رعايتنا لك!» صرخ عمه أمام الكل، فضجّ الجميع على هذه الإفادة، فشهق البعض وتمتم البعض الآخر غير راض عن تصرّف الولد العاق.

رفع الشيخ فجأة يده إلى الأعلى، فعمّ الصمت. وقال:

«أريد أن أسمع من خليفة».

رفع خليفة رأسه فصادفت عيناه عيني الشيخ عبد العزيز، فشعر بالطمأنينة، وقصّ كلَّ ما حصل منذ ولادة جفُّول لم يقل كيف كان عمه يعامله بجفاء وقسوة، ولم يتحدث إلا عن صديقه الحصان. استمع الشيخ بإمعان دون أن يقاطع خليفة وقال:

«علاقتك قوية مع الحصان كأنه حقاً ملك لك يا خليفة. تعجبني هذه الحميمية بين الفارس وجواده. لكنني اشتريته من عمك لأنني أحب هذه السلالة. وبعدما شاهدته اليوم، صرت أرغب فيه أكثر وأرى إمكانياته بعد التدريب!».

اغرورقت عينا خليفة بالدموع، لكن حاول أن يوسع فتحتهما كيلا تنسكب على خده. كيف لهذا الرجل أن يأخذ جفُّول بعد أن أخبره بكل شيء؟ ثم أكمل الشيخ حديثه:

وأيضاً، أبهرتَني يا خليفة؛ فأنت لم تتدرب باحترافية على ركوب الخيل. مع هذا شاهدت كيف تجاوب الحصان معك وكيف امتطيته بكل سهولة من دون سرج أو لجام.

هذا يدل على إصرار وعزيمة و... شغف!».

ما الفائدة؟ فكر خليفة في نفسه. لن يكون باستطاعته امتطاء صديقه الحصان ولا رؤيته بعد الآن، ولا يظن أنه سيشعر تجاه أي حصان كما شعر مع جفُّول.

«جاءتني فكرة وأتمنى أن أعرف إن كانت ستعجبك» أكمل الشيخ وهو يمسح لحيته. «سآخذ الحصان وأضمه إلى مجموعتي وسيحظى بأفضل رعاية في المنطقة في إسطبلاتي. سيكون لك تصريح بزيارة الحصان وستتعلّم ركوب الخيول على أصوله. وسيشارك الحصان في المضمار حين يصل السن المناسبة كباقي جيادي، وستكون أنت فارسه».

ساد صمت في المكان. لم يصدق خليفة ما سمعه. بلع ريقه بصعوبة ثم قال بتردد:

«أنا؟ أنا...؟ فارس؟».

«أجل أنت، والفكرة هي إن خسرت في السباق فسيكون

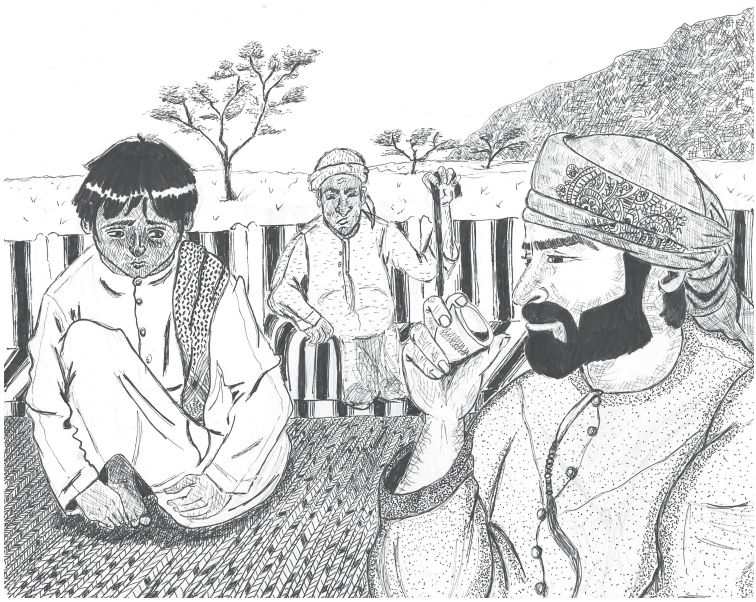

الجـواد ملـكاً لـي، لكـن إن فـزت سـتصبح أنـت مالكـه».

فتح الجميع أفواههم، بمن في ذلك خليفة. لم يصدق ما سمع! أولاً سيسمح له بزيارة الحصان وركوبه والمشاركة في المسابقات! لكن أن يفوز بملكيته؟ شعر خليفة بأنه يكاد يطير من الفرحة.

«هـا؟ مـا رأيـك بهـذه الفكـرة يـا خليفة؟ سـأل الشـيخ وابتسـامة جذابـة بـدت علـى وجهـه. ابتسـم خليفـة وأومـأ برأسـه: نعـم. لـم يسـتطع مـن شـدة الفـرح أن ينبـس ببنـت شـفة مـن الفرحـة.

«حسـناً، تعـال نتصافـح ونعلـن تصديقنـا علـى هـذه الاتفاقيـة» قـال الشـيخ.

وقـف خليفـة ونظـر إلـى عمـه. كان وجـه عمـه تعتليـه الصدمـة والحيـرة فـي نفـس الوقـت.

«بعـد إذنـك عمـي» قـال خليفـة لعمـه الـذي أومـأ برأسـه مشـيراً بالإيجـاب. ثـم تقـدم خليفـة مـن الشـيخ وسـلَّم عليـه ثـم سـأله:

«ما اسم جوادك يا خليفة؟»

جفُّول.

«أعتقد أن هذا الفحل السريع يستحق تسمية أفضل من هذه».

عـرف خليفـة الاسـم الـذي كان يجـول فـي خاطـره دائمـاً حيـن يمتطـي حصانـه، الاسـم الـذي يسـتحقه جـواده. فقـال:

«طوفان!».

ميثاء الخياط

- كاتبة ورسامة إماراتية في أدب الطفل.
- عضو في المجلس الإماراتي لكتب اليافعين - IBBY، وسفيرة دائمة لمهرجان طيران الإمارات للآداب.
- حاز كتابها «طريقتي الخاصة» على جائزة أفضل كتاب في ملتقى الطفل في الرياض 2011 وهو أول كتاب أطفال إماراتي يجد طريقه إلى خارج الدولة. والذي تم ترشيحه أيضا لجائزة مارش لأفضل الكتب المترجمة في بريطانيا سنة 2013.
- فاز كتاب «أطفئ الأنوار» بالمركز الأول لجائزة الملتقى العربي لناشري كتب الأطفال سنة 2016.
- تعد رواية «طوفان» أول رواية لها موجهة لليافعين.